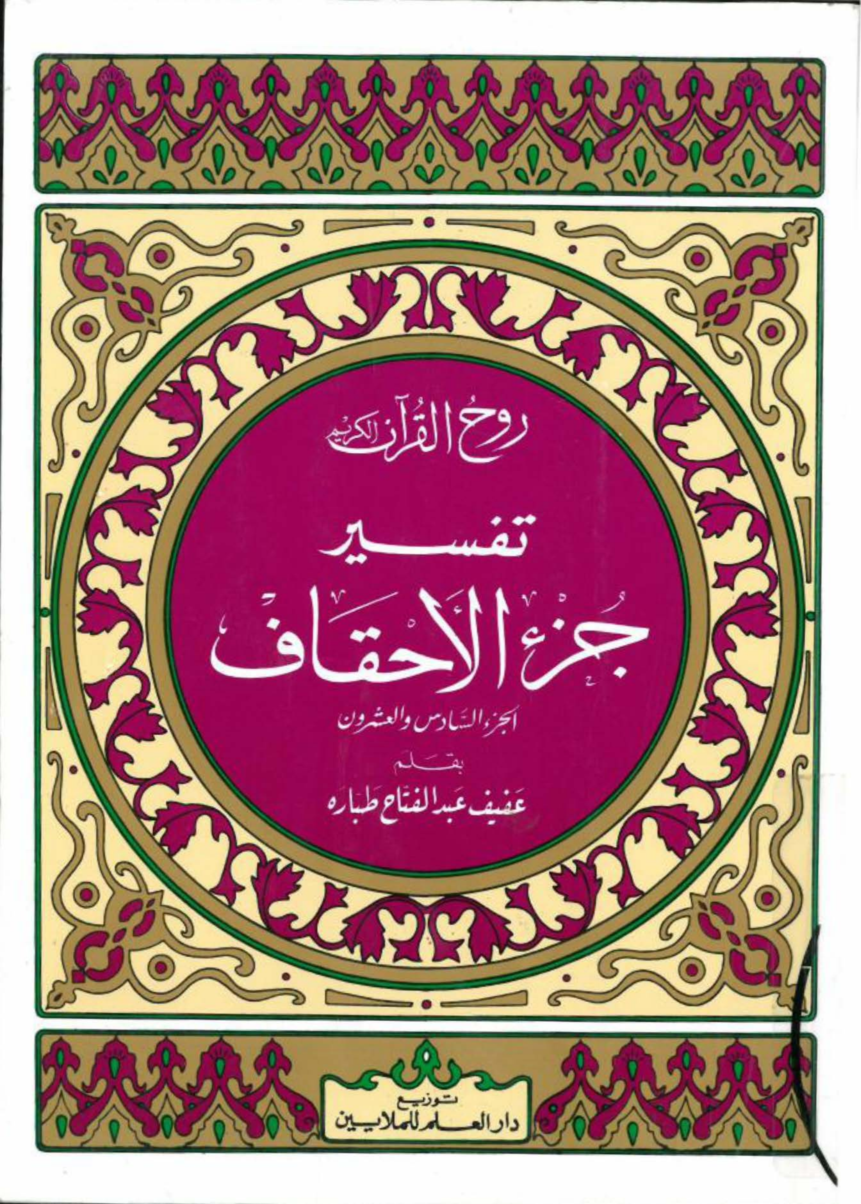

روح القرآن الكريم
تفسير
جزء الأحقاف
الجزء السادس والعشرون
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

تــــوضيح

الجزء السادس والعشرون هذا يبتدىء بسورة الأحقاف ، وينتهي بالآية ٣٠ من سورة الذاريات ، التي فسرناها كاملة في كتابنا السابق : تفسير جزء والذاريات (الجزء السابع والعشرون) ، لذلك اقتضى التنويه .

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الأحقاف

الجزء السادس والعشرون

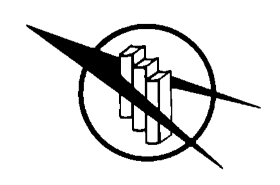
بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



آذار (مارس) ١٩٨٩

سُورَةُ الأَحْقَافِ

هذه السورة تبين أن القرآن منزل من عند الله الواحد الذي لا شريك له ، كما تبين بطلان عبادة الأصنام بأدلة عقلية لا تقبل النقض ، مع الاستخفاف بها وبعابديها ، ثم تذكر السورة إنكار الكافرين للقرآن ولنبوة محمد ﷺ ، وما يتعللون به من أباطيل ، فتردُّ على إنكارهم ومفترياتهم بأبلغ بيان ، كما تَذْكُرُ وعد الله للمستقيم بحسن الجزاء مستطردة بذكر مِثال للمستقيم البارّ بوالديه ، ومثال آخر لغير المستقيم العاق بوالديه .

وهذه السورة اشتملت كذلك على وعيد الله للكافرين بالهلاك مع ذكر ما وقع لأمثالهم من الأمم السابقة من العذاب والهلاك . كما عرضت السورة قصة نفر من الجن آمنوا بالقرآن حين استمعوا له ورأوا ما فيه من الهدى والحق ، ثم أعقبت ذلك بإثبات البعث ، وإقامة الدليل عليه ، ثم ختمت السورة بدعوة النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلاقيه من قومه من أذى .

وهذه السورة إحدى سبع سُور تستهل بـ « حم » ويطلق على هذه السُّور « الحواميم » أو « آل حم » وقد ذُكِرَ عن الصحابة بعض فضائل هذه السور فقال ابن مسعود : آل حم ديباج القرآن . وقال ابن عباس : إن لكل شيء لِباباً وَلِبَابُ[1] القرآن الحواميم .

---

(١) اللباب : المختار الخالص من كل شيء .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ
أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى
مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ
هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ
غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ

شرح المفردات

أجل مُسَمًّى : الوقت الذي ينتهي إليه فناء الكون وهو يوم القيامة .

أُنْذِرُوا : خُوِّفوا وحُذِّروا من عقاب الله .

مُعْرِضُونَ : منصرفون عنه ، لا يؤمنون به ولا يهتمون له .

مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ : ما تعبدون من أصنام وغيرها من دون الله .

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمَاوَاتِ : أم لهم شركة ونصيب مع الله في خلق السماوات .

أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ : بقية من علم مكتوب وصلت إليكم من علم السابقين .

وَمَنْ أَضَلُّ : ولا أحد أشد ضلالاً .

مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ : من لا يجيب دعاءه ولا يحقق رجاءه وهي الأصنام .

حُشِرَ النَّاسُ : جُمِعَ الناس للحساب يوم القيامة .

كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

شرح المفردات

وإذا تُتْلَى عَلَيْهِم آياتُنا بَيِّنَاتٍ : وإذا قُرِئت عليهم آيات القرآن الواضحة الظاهرة .

افْتَرَاه : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

فَلَا تَمْلِكُون لي مِنَ اللَّهِ شيئاً : لا تقدرون أن تردّوا عني عذاب الله .

تُفِيضُون فيهِ : تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن .

شهيداً : رقيباً .

مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُل : ما أنا بأول رسول من الله إلى الناس .

إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : إن كان القرآن من عند الله .

هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ : هذا كذب وأساطير قديمة .

إِمَاماً : قدوة يُؤتمّ به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام .

وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ : وهذا القرآن مصدّق لما سبقه من الكتب السماوية .

سورة الأحقاف

ايضــاح و دروس

يَستهلُّ اللّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن منزل من عنده :

﴿ حمٓ[1] . تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ . مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (١ ـ ٣) .

تبدأ هذه السورة بالحرفين (حم)[1] وهي بداية تكررت بعينها في ست سُور سابقة ، وكأنها تقول : إن هذا القرآن مؤلف من مثل هذين الحرفين وغيرهما من حروف الأبجدية التي تتكلمون بها ، ولكنه معجز لا تستطيعون الإتيان بمثله ، لأنه كتاب مُنزل من عند الله : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ وتنزيله من اللّه جاء تأكيده في كثير من الآيات القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَبالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبالحَقِّ نَزَل ﴾ الإسراء : ١٠٥ . هذا التأكيد من اللّه يأتي لإبعاد كل شك يتسرّب إلى النفوس في أن القرآن من تأليف محمد . وقبيلة قريش كان تكذيبها للنبي ﷺ في أوائل نزول القرآن متجهاً إلى نُكران أن القرآن مُنْزَلٌ من رب العالمين ، لذلك وصفوا محمداً بأنه شاعر ، وتارةً بأنه ساحر ، وتارةً أخرى

---

(١) حم : اختلف العلماء في تأويل هذين الحرفين فقيل إنهما من حروف أسماء الله ، وقيل : حمٓ قسم أقسمه وهو اسم من أسماء الله . وقيل : حم هو اسم من أسماء القرآن . وقيل : حم معناه : قُضي ما هو كائن كأن القائل بذلك أراد الإشارة إلى تهجي حم لأنها تصير حُمّ أي قضي ووقع .

بـأنه كـاهن ، عندمـا سمعـوه يتلو عليهم القـرآن الكـريم الـذي استهـواهم ببلاغته وفصاحته ومعانيه . والقـرآن يريـد أن يَنْزِعَ هـذا الوهم والشـك من رؤوسهم ، فـالذي أنـزل القرآن هـو اللّٰه خالق الـسمـاوات والأرض ، كمـا تُعلن بـذلك الآيـة التاليـة : ﴿ مَا خَلَقْنَـا السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ فاللّٰه خلق هذا الكون بالحق أي خلقاً متصفاً بالحق الـذي تقتضيه الحكمة الإلٰهيَّة ﴿ وَأَجَـلٍ مُسَمًّى ﴾ أي جعل اللّٰه لهـذا الكون غـاية ووقتـاً بحيث ينتهي مداه يوم القيامة ، حيث تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسمـاوات أيضاً .

أما الماديون الملحدون فيدّعون أن هذا الكون وُجِدَ صدفة فلا بداية له ولا نهاية .

والعقـل البشـري لا يمكن أن يَتَقَبَّـل شيئـاً حـادثـاً دون أن يكـون لـه مُحدث ، فهو إذا رأى أيـة صناعـة من الصناعـات التي لا تحصى كالسـاعة والسـيارة وآلة الحياكة مثلاً ، لا يمكن أن يتصور أنها صنعت نفسها أو صُنِعت بدون صانع ، فكيف يمكن أن يتصوَّر عاقل أن هذا الكون بسمائه وأرضه ، وما فيه من عجائب الصنع وإعجاز الخلق قد أوجـد نفسـه ، أو خُلِقَ صـدفةً واتفاقاً .

فكلا الكتابين : كتاب (القرآن) المعجـز بأسلوبـه وهديـه وتشريعـه ، وكتاب (الكون) وما فيه من عـظمة الخلق والحكمـة والتدبيـر ، كل ذلـك ينطق بوجود اللّٰه ووحدانيته ، ويشهد بحكمته وعظمتـه ، ولكن بالـرغم من هذه البراهين المفحمة فإن ﴿ الَّذين كَفَرُوا عَمَّـا أُنْذِرُوا مُعْـرِضُونَ ﴾ فهؤلاء الـذين جحدوا وجـود اللّٰه ووحدانيتـه هم عن إنـذار اللّٰه إيـاهم منصـرفـون لا يتعـظون ولا يعتبـرون ، فلو أنهم تـدبّـروا وأمعنـوا الفكـر في كتـاب اللّٰه

لعلموا أنه كلام اللّٰه الواحد الأحد لا كلام البشر ، ولو أنهم تفكروا مليًّا في أسرار خلق السماوات والأرض لآمنوا بوجود اللّٰه ووحدانيته وتركوا عقائدهم الفاسدة من عبادة الأصنام وغيرها .

ثم ينتقل القرآن إلى إنكار ما كان عليه مشركو العرب من عبادة الأصنام والشرك باللّٰه . وفي القرآن إشارات إلى أنواع من الشرك كان عليها العرب قبل الإسلام .

منها : عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب والمعادن .

ومنها : عبادة الجن الذين هم شركاء اللّٰه في زعمهم .

ومنها : عبادة الملائكة التي يعتبرونها بنات اللّٰه .

ومنها : عبادتهم لبعض النجوم كالشعرى ، وعبادتهم للشمس والقمر .

هذا وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الأصنام شفيعة لهم عند اللّٰه فهم يعبدونها لتقرّبهم إلى اللّٰه ، وقد كانت عبادة الأصنام منتشرة انتشاراً واسعاً في جزيرة العرب قبل الإسلام حتى كان أهل كل دار يتخذون صنماً في دارهم يعبدونه .

والقرآن يأمر رسوله محمداً ﷺ بأن يطلب من المشركين وعبدة الأصنام الدليل والبرهان على أن معبوداتهم تستحق العبادة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُم شِرْكٌ في السَّمٰوَاتِ ؟ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أو أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

هـذه الآية لا نملك إلاّ أن نقف أمـامها بـإجلال لمـا تشتمـل عليـه من الأدلة الساطعة على بطلان المعبودات المختلفة التي كان يعبدها العرب في الجاهليـة ، فهي تـطلب منهم الـدليـل تلو الـدليــل على صحـة ألــوهيـة معبـوداتهم . ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُم مَـا تَـدْعُــونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ اي قـل لهم أيهــا الرسول : أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها ﴿ أَرُونِي مَـاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أعلموني ماذا خلقوا مما على الأرض من جمـاد ونبات وحيـوان ﴿ أَمْ لَهُمْ شِـرْكٌ فِي السَّماواتِ ﴾ أم لهم نصيب وشـركـة مـع اللّه في خلق السماوات ﴿ ائْتُونِي بِكَتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أعطوني كتاباً منزّلاً من عند اللّه من قبل هذا القرآن الذي أُنـزل عليّ يدلّ على صحـة دينكم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أو بقيَّة مِنْ عِلْمِ الأولين مكتربة تشـهد باستحقاقها العبادة ﴿ إن كُنْتُم صادِقِينَ ﴾ بأن هذه المعبودات هي جديرة بالعبادة .

وهكـذا نرى أن القـرآن يـستير فيهم منـطق العقل القـائم على الحجـة والبـرهان ليصلوا من خـلال ذلك إلى الإعتقـاد بوحـدانيـة اللّه ونبـذ عبـادة الأصـنام .

ثم يبيّن القـرآن بعـد ذلــك بـأن هــذه الألهـة المعبــودة من دون اللّه لا تستجيب لـدعائهم إذا دعـوها ولا تشعـر بهم ، وأن الذين يعبـدونهـا هم أجهل خلق اللّه .

﴿ وَمَنْ[1] أَضَـلُّ مِمَّن يَدْعُـو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَـوْمِ القِيَـامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعـائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ كـانوا لَهُمْ أَعْـدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كافِرِينَ ﴾ (٥ ـ ٦) .

---

(١) من : استفهامية ولكن الاستفهام هنا للإنكار والنفي لأن يكون أحد يساوي عبدة الأصنام في الضلال .

والمعنى : لا أحد أضلّ وأجهل من هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والملائكة والجن لأنهم تركوا عبادة اللّٰه السميع المجيب القادر على كل شيء ، ودعوا هذه المعبودات التي لا قدرة لها على استجابة دعائهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، وهذه المعبودات في غفلة عن دعائهم ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ وإذا قامت القيامة وجُمِعَ الناس للحساب على أعمالهم كانت هذه المعبودات لهم أعداء فتتبرأ منهم ، وتكفر بعبادتهم لها .

فإن قيل : كيف تتكلم هذه الأصنام وهي من الجمادات ؟ يُجاب عن ذلك : بأن اللّٰه سبحانه قد يضع فيها الحياة لتجابههم بالعداء وتتبرأ منهم .

ثم يبين اللّٰه موقف المشركين من القرآن ومن نبوّة محمد ﷺ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧ ـ ٨) .

فهؤلاء المشركون حينما يُقرأ عليهم القرآن مبيّنة فيه الأدلة الواضحة على أنه وحي إلٰهي كانوا يصفون القرآن وهو الحق : إنه سحر يخدع من سمعه ، وأن خداعه ظاهر واضح

ولا يكتفي المشركون بذلك بل يضيفون تهمة الكذب للنبي ﷺ ولهذا ينكر اللّٰه عليهم ذلك بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » للإنكار والتعجب ، وافتراه : أي اختلقه ، والمعنى : عجباً للذين ينسبون الكذب للنبي ﷺ ويقولون : إن القرآن من تأليفه لا من عند اللّٰه . أمام هذا الافتراء

يأمر اللّه النبي أن يخاطب قومه : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي لو كذبت على اللّه ـ كما تدّعون ـ لعاجلني بعقوبة الإفتراء عليه ، ولن يقدر أحد من أهل الأرض أن يدفع عني عقابه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فيه ﴾ هو أعلم بما تخوضون فيه من الطعن بالوحي الإلٰهي ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فهو سبحانه يشهد لي بالصدق في تبليغ الوحي الإلٰهي ، ويشهد عليكم بالكذب والافتراء على وحيه ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ وفي هذا ترغيب لمن يبغي العودة إلى الحق حيث يجد عند اللّه المغفرة والرحمة .

وبعد ذلك يأمر اللّه رسوله محمداً بأن يبلّغ قومه حقيقة رسالته :

﴿ قُلْ : مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الـرُّسُلِ وَمَـا أَدْرِي ما يُفْعَـلُ بي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٩) .

أي قل لقومك يا محمد : ﴿ مَا كُنْتُ بِـدْعاً[١] من الـرُّسُل ﴾ أي مـا أنا بأول رسول من اللّه إلى خلقه فقد سبقني كثيـر من الرسـل أُرسلوا إلى أمم قبلكم ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُمْ ﴾ وقل لهم : ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم يوم القيامة ، أو بما يصير إليه أمري وأمركم في هذه الدنيا . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي ما أتبـع إلاّ القرآن الـذي أوحاه اللّه إليّ ﴿ وَمَـا أَنَـا إِلاَّ نَذِيـرٌ مُبِينٌ ﴾ وما أنـا إلاّ محذّر ومخـوف لكم عقاب اللّٰه بـالحجـج الواضحة إن بقيتم على كفركم .

ثم يدعو القـرآن المشركين إلى التمعّن في حقيقـة الإسلام لافتـاً النظر إلى إسـلام بعض علماء اليهـود الَّذِينَ درسـوا الأديان الســابقـة فـاستمـالهم

---

(١) بدعاً : البدع والبديع من الأشياء ما لم يُرَ مثله سابقاً .

الإسلام لِمَا فيه من الهدى والحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ[١] عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) .

ومعنى الآية : قل يا محمد للذين زعموا أنك اختلقت القرآن : أخبروني عن حالكم عند الله إن ثبت أن القرآن وحي إلّهي وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل المطّلعين على التوراة ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي على نزول مثل القرآن على موسى وهي : التوراة المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وفيها مكتوب صفة النبي الموعود وهو محمد ﷺ مثل ما هو مكتوب في القرآن أنه نبي . ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فآمن هذا الشاهد بالقرآن لَمَّا عَلِمَ أنه وحي إلّهي واستكبرتم عن الإيمان ، ألا تكونون في هذه الحال من الظالمين لأنفسكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق الظالمين إلى الهدى والحق .

---

(١) روي في أسباب نزول هذه الآية : أنه لما أراد عبد الله بن سلام أن يُسلم قال يا رسول الله : قد علمت اليهود أني من علمائهم ، وأن أبي كان من علمائهم وإني أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة . فأرسل إلى فلان وفلان ، ومن سماه من اليهود ، وخبئني في بيتك وسلهم عني ، وعن أبي ، فإنهم سيحدثونك أني أعلمهم ، وأن أبي من أعلمهم ، وإني سأخرج إليهم ، فأشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة ، وأنك بُعثت بالهدى ودين الحق ، قال : ففعل رسول الله فخبأه في بيته ، وأرسل إلى اليهود ، فدخلوا عليه ، فقال رسول الله : ما عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : أعلمنا نفساً ، وأعلمنا أباً . فقال رسول الله : أرأيتم إن أسْلَمَ تُسلمون ؟ قالوا : لا يُسلم (ثلاث مرات) فدعاه الرسول فخرج ، ثم قال : أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة ، وأنك بُعثت بالهدى ودين الحق ، فقالت اليهود : ما كنا نخشاك على هذا يا عبد الله بن سلام ، قال : فخرجوا كفّاراً . (عن الطبري) .

والسبب الـذي كان يتعلل بـه سادات قـريش لرفضهم الإسـلام هو أن أكثر الذين اعتنقوا الإسلام في مستهل الدعـوة الإسلاميـة كانـوا من الفقراء المستضعفين ، بينما هم أصحاب الجـاه والغنى ، وهذا مـا بيّنه القـرآن في الآية التالية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْـهِ ، وَإِذْ لم يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١١) .

فكفار قريش قـالوا في شـأن المؤمنين : لو كـان ما جـاء به محمـد من القـرآن والدِين خيـراً ما سبقنـا إليه هؤلاء الفقـراء الضعفاء ونحن أصحـاب الجـاه والغنى ﴿ وإِذْ لَمْ يَهْتَـدوا بِـهِ ﴾ وإذ لم يهتـدوا بـالقـرآن لكبـريـائهم فسيقولون فيه إضافة لما سـبق : ﴿ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي هذا القرآن أكاذيب قديمة لا أساس لها من الصحة .

فـالإسلام جـاء ليجمع الأقـوياء والضعفـاء والأغنياء في بـوتقـة واحـدة لا تباين ولا تفاضل بينهم إلا بميزان التقوى والعمل الصـالح ، لكن الكفـار من سـادات العرب الَّـذِينَ تملكتهم نـزعـة الكبـريـاء شق عليهم الـدخـول بـالإسلام ، لمـا يفرضـه من مساواة بينهم وبين الفقـراء المـستضعفين فأبـوا الاستجابة لهذا الدِّين الجديد .

ثم يبيّن اللّه أنَّ القـرآن الـذي أُنـزِلَ على محمـد ﷺ ليس أول كتـاب سماوي ، فقد سبقته من قبل التوراة ، وجاء القرآن بلسـان عربي مصدقاً لها ومتمماً :

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَـاناً عَـرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢) .

أي من قبل نزول القرآن أَنْزَلَ اللَّه التوراة ﴿ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ أي قدوة ورحمة للآخذينَ بها ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ وهذا القرآن مصدّق للتوراة أو للنبي ﷺ ﴿ لِسَاناً عَرَبِيًّا ﴾ وهو بلسان عربي فصيح تفهمونه ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ليخوّف ويحذّر الظالمين المعرضين عن الهدى بعذاب من اللَّه ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ومبشراً للمؤمنين الذين يفعلون الخير بالنعيم الأبدي .

تأمل كيف عبّر عن المؤمنين بالمحسنين ليقابل بلفظ الإحسان لفظ الظلم الذي أطلقه من قبل على الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ

شـرح المفـردات

وضعته : ولدته .

كُرْهاً : مشقة .

فِصَالُهُ : فطامه .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ كمال قوته وعقله .

أَوْزِعْني : ألهمني ووفقني .

وَإني مِنَ الْمُسْلِمين : واني من الخاضعين لك بالطاعة .

وَنَتجاوزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ : نصفح عن سيئاتهم .

في أَصْحَابِ الجنَّة : أي مع أصحاب الجنة .

أن أُخْرَجَ : ان أُبعث بعد موتي حيًا يوم القيامة .

خَلَتِ القُرونُ : مضت الأمم .

وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

شرح المفردات

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين : أحاديث وخرافات كتبها السابقون لا أساس لها من الصحة .

حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ : وجب عليهم العذاب .

في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ : في أمم سبقت ومضت .

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ : ولكل قوم منازل ومراتب عند الله .

وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ : وليعطيهم جزاء أعمالهم .

عَذَابَ الهُونِ : عذاب الهوان والذل .

تَفْسُقُون : تخرجون عن طاعة الله .

تـابع سُورَة الأحقاف

ثم يبين القرآن حقيقة الإيمان وما يجب أن يلازمه من سلوك خاص :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣ ـ ١٤) .

فاللّه يثني على المؤمنين الذين قالوا : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ قالوا ذلك مؤمنين بألوهية اللّه وحده وربوبيته الشاملة لهذا الكون ، فله العبادة ، وعليه الاعتماد . وهؤلاء المؤمنون قرنوا الإيمان بالاستقامة ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي سلكوا الطريق القويم .

فهاتان العبارتان تجمعان معاني الإسلام اعتقاداً وعملاً ، لأن الإسلام توحيد وطاعة ، فالتوحيد مستقى من الجملة الأولى ﴿ قالوا : ربُّنَا اللّه ﴾ والطاعة بجميع أنواعها مستقاة من الجملة الثانية ﴿ ثم استقاموا ﴾ لأن الاستقامة امتثال لكل ما أمر اللّه به ، واجتناب كل ما نهى عنه .

وفي هذا المعنى رُوي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت باللّه ثم استقم[١] .

وجزاء الذين ساروا على درب الإيمان والاستقامة : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله وعذاب الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم ، كما أن هؤلاء هم أهل الجنة ماكثين

---

(١) رواه مسلم .

فيها أبداً ، يتنعمون بها جزاء بما قدّموه من عمل صالح في دنياهم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى الوصيّة بالوالدين والإحسان إليهما ، مع تقديم صورة للمؤمن الحقيقي الذي عرف فضل ربه عليه فعمل بما يرضيه فتقبّل الله عمله وجزاه الجزاء الحسن :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً حَتَّى إذَا بَلَغَ أشُدَّهُ وَبَلَغَ أرْبَعِينَ سَنَةً ، قال : ربِّ أوْزِعْني أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي في ذُرِّيَتي إنِّي تُبْتُ إلَيْكَ وَإنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ . أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ في أصْحابِ الجَنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدق الَّذي كَانُوا يُوعَدُون ﴾ (١٥ ـ ١٦) .

فالله يأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وذلك بالإنعام عليهما بما يحتاجان إليه وإكرامهما وصنع كل جميل لهما ، ثم يعلّل القرآن هذا الإحسان بذكر ما قدمته الأم من تضحيات لولدها **﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾** كُرْهاً : أي مشقة . فالأم قاست مشقة في حمل وليدها بما صادفها من وحم وغثيان وثقل ولا سيما في الأشهر الأخيرة ، وما قاست من مشقة في وضع وليدها من الطلق وألم الوضع ، بالإضافة إلى ما يصادف البعض من خطر أثناء الولادة .

وعندما تخصّ الآية مشقة الأم بالذكر فلأنها تعبّر عن حقيقة الحال التي تعانيها الأم من تضحيات مشعرة بعظمة الأمومة وفضلها وقداستها ، ومذكرة بطرف خفي بواجب الأولاد نحو أمهاتهم ليبادلوهن إحساناً بإحسان.

وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثُمَّ من ؟ قال : أمك ،

قال : ثُمَّ من ؟ قال : أمك ، قال : ثُمَّ من ؟ قال : ثم أبوك »[١] .

ويتابع القرآن ذكر فضل الأم : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾[٢] والفصال : هو الانفصال من الرضاع وهو الفطام ، أي مدة حمله مع رضاعه إلى وقت الفطام ثلاثون شهراً ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي حتى إذا اكتمل نموه واستحكمت قوته ونضج عقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي السن التي يبلغ فيها الإنسان كمال العقل والرشد ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ان أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ أي ألهمني يا رب شكر نعمتك التي أنعمت عليّ في هدايتك لي ، وما أنعمت على والديّ من الرحمة والشفقة حتى ربَّياني صغيراً ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ أي ألهمني أيضاً أن أعمل الأعمال الصالحة التي ترضاها . والتنكير في ﴿ صالحاً ﴾ يفيد التكثير كما يقول علماء اللغة ، وهذا إيحاء بالإكثار من الأعمال الصالحة ﴿ وَأَصْلِح لي في ذُرِّيَّتي ﴾[٣] وأصلح لي أموري في ذريتي الذين وهبتهم لي بأن تجعلهم : مهتدين بالإيمان بك عاملين على مرضاتك قائمين بطاعتك ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ والتوبة ترك الذنب لقبحه والندم على اقترافه ، والعزم على عدم العودة إليه ﴿ وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ وإني من الخاضعين لك بالطاعة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) هذه الآية تقول : إن مدة الحمل في بطن الأم مع الفطام بعد الرضاعة : ثلاثون شهراً . وجاء في القرآن : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ والحول : السنة ، أي مدة الرضاعة أربعة وعشرون شهراً ، فبإسقاط مدة الرضاعة عن مدة الحمل والفطام بعد الرضاعة يبقى للحمل ستة أشهر . وهذا ما يتفق مع ما ثبت علمياً من أن الطفل إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة .

(٣) هذا الدعاء الذي علمه الله للمؤمنين هو في الوقت نفسه توجيه لهم بتربية ذريتهم التربية الصالحة التي هي نعمة من أجل النعم على الوالدين .

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الكريمة يتقبّل اللّه منهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال فيجازيهم بها ويثيبهم عليها ﴿ وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي يصفح اللّه عن سيئات أعمالهم التي عملوها بعد أن تابوا وعملوا الأحسن من الصالحات ﴿ في أَصْحَابِ الجَنَّةِ ﴾ أي في جملة من يتجاوز عنهم من أصحاب الجنة ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذي كَانُوا يُوعَدُون ﴾ أي وَعَدهم اللّه وَعْد الصدق وهو لا شك أنه موفٍ لهم ما وعدهم إياه في الدنيا .

وبعد أن قدّم القرآن صورة للمؤمن البارّ بوالديه ، قدّم صورة أخرى للولد العاق المنكر للبعث والجزاء :

﴿ والَّذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدانني أن أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ : مَا هَذَا إلّاَ أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(١٧) .

فالولد العاق كان يقول لوالديه اللذين يدعوانه للإيمان والإقرار ببعث الموتى من قبورهم أحياء يوم الحساب ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ صوت صدر من العاق ينبىء عن تضجره مما سمعه من والديه . ثم يضيف قائلاً ﴿ أَتَعِدَانِني أَن أُخْرَجَ ﴾ أي اتعدانني أن أُخرج من قبري للبعث والحساب ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القُرونُ مِنْ قَبْلِي﴾ وقد مضت أجيال من الأمم قبلي ماتوا فلم يُبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ ﴾ أي ووالداه يدعوان اللّه بضراعة أن يهديه ، أو يستغيثان باللّه من كفره ، قائلين له : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ ويلك : تستعمل في الدعاء بالهلاك ، وهنا أريد بها الحث والتحريض على الإيمان ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حقٌّ ﴾ إن وعد اللّه الذي وَعَدَ خلقه بأن يبعثهم من قبورهم للحساب هو وعد حق لا ريب فيه ﴿ فَيَقُولُ مَا هَـذَا إلّاَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾

فيقول هذا الولد العاق لوالديه : إن ما تؤمنان به من البعث ورجوع الناس أحياء ما هو إلاّ ما سطّره الأولون من الأباطيل .

هذه الصورة لمنكر البعث نراها اليوم أوضح ما تكون في عصرنا الحاضر حيث انخدع كثير من أبناء هذا الجيل بالمذاهب المادية الملحدة التي صوّرت لهم أنه لا بعث ولا جزاء بعد هذه الحياة وأن الأديان ما هي إلاّ أساطير الأولين ، وأن الدنيا هي غاية المطاف فليعبّوا من ملذاتها وشهواتها ما طاب لهم بأية وسيلة كانت ، فكان أثر ذلك شيوع الفساد والمنكرات والإباحية .

فالآيات السابقة توجيه لنا للتصدي للمذاهب المادية الملحدة ، والحؤول دون تسرّب سمومها إلى عقول أبنائنا فتفسدهم وتقضي على نزعة الخير فيهم .

ثم يتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنكرين للبعث :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَولُ[1] فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ والإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ . وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٨ ـ ١٩) .

فهؤلاء المنكرون للبعث وجب عليهم عذاب اللّه ، وحلّت بهم عقوبته فيمن حل به العذاب من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجن والإنس ، الذين كذّبوا رُسُل اللّه ، وتمرّدوا على أوامر اللّه ، فكان عاقبتهم الخسران

---

(١) حق عليهم القول : هذه الجملة ترددت في القرآن وهي ترمز إلى عذاب اللّه التي فرها في قوله تعالى في إبليس ومن تبعه ﴿ لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ مني لأملأنَّ جَهَنَّم مِنْكَ وممَّن اتبعك منهم أجمعين ﴾ .

باستبدالهم الضلال بالهدى ، والعقاب بالنعيم . ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عمِلُوا ﴾ أي ولكل من المؤمنين والكافرين منازل ومراتب عند الله يوم القيامة ، ﴿ وَلِيُوفِّيَهُم أعمالهم ﴾ أي ليجازيهم بما عملوا من خير أو شر . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص في الثواب للمؤمنين وزيادة العقاب للكافرين .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى أنذار الذين يهدرون قيم الحق والخير في سبيل استمتاعهم بالدنيا :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُم تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠) .

فهؤلاء الذين جحدوا وحدانية الله وأنكروا حدوث البعث يُجاء بهم يوم القيامة إلى النار فيكشف لهم عنها وتظهر لهم ثم يقال لهم توبيخاً : ﴿ أَذْهَبْتُم طيِّبَاتِكُم في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا[١] واسْتَمتَعتُم بهَا ﴾ أي أن كل ما قُدِّرَ لكم من الطيبات فقد أهدرتموها وتمتعتم بملاذ الحياة من أي الطرق كانت فلم تراعوا الحلال والحرام ﴿ فَاليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ ﴾ فاليوم ستقاسون عذاب الهوان والذل ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ

---

(١) فهم كثير من المفسرين من قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُم طيِّباتِكُم في حَيَاتِكُم الدُّنْيَا ﴾ بأنه دعوة للزهد ، واستشهدوا بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ولكني استبقي طيباتي » ونحن نخالف هذا المفهوم فإن سياق الآية وتذييلها بقوله تعالى : ﴿ بما كُنتُم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كُنتُم تفْسقون ﴾ يؤكد أن المراد بإذهاب الطيبات هو عصيان الله والخروج عن طاعته والاستكبار في الأرض ، هذا وإن القرآن أباح الاستمتاع بالدنيا في حدود الاعتدال وعدم الإسراف وتجاوز حدود الله .

الحَقِّ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تتكبرون في الدنيا على ربكم فتأبون أن تخلصوا له العبادة وأن تذعنوا لأمره ونهيه ، وبسبب ما كنتم تستعلون على الناس بغير الحق ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ وبما كنتم تخرجون عن طاعة اللّٰه وتعملون المعاصي .

فقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ تبيان منه سبحانه بأنه خصّ الإنسان بأشرف الصفات الإنسانية ، وأسمى الملكات النفسية والروحية التي يجب أن يحافظ عليها فلا يهدرها في سبيل الاستمتاع بالدنيا .

فهؤلاء الكافرون استحقوا عذاب اللّٰه في الآخرة لأنهم :

أَذْهَبُوا طيباتهم بالزنا والفحش لإشباع شهواتهم الجنسية .

ولأنهم أَذْهَبوا طيباتهم بالظلم والكبر والتعالي على الناس لإرضاء شهوة الحكم والجاه في نفوسهم .

ولأنهم أَذْهَبُوا طيباتهم بالربا والغش وأكل أموال الناس بالباطل لزيادة أموالهم وإنفاقها على ملذاتهم

إنهم أَذْهَبوا كل طيباتهم في سبيل زيادة استمتاعهم بالدنيا .

فاللّٰه أباح الاستمتاع بالدنيا ولكن في حدود العدل والاعتدال والحق كما جاء في القرآن : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنوا في الحَياة الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ. . . . ﴾ الأعراف : ٣٢ . ثم يوضّح القرآن حدود هذا الاستمتاع في الآية التي تليها : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطن وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ الأعراف : ٣٣ .

۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم
مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا
مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ
رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۢ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ
إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ
إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ
عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ

شَرح المفردات

أَخَا عَادٍ : هو النبي هود عليه السلام .

الأحقاف : اسم الديار التي سكنتها قبيلة عاد .

خَلَتِ النُّذُرُ : مضت الرسل الذين خوّفوا قومهم من عذاب اللّه .

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ : من قبله .

وَمِنْ خَلْفِهِ : ومن بعده .

لِتَأْفِكَنَا : لتصرفنا .

عَارِضاً : العارض هو السحاب الذي يعترض في أفق السماء .

مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ : ثبتناهم ، وجعلنا لهم التصرّف فيها .

يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا
إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

شَـرح المفـردَات

يَجْحَدُونَ : ينكرون .

وَحَاقَ بِهِم : نزل بهم العذاب وأصابهم .

وَصَرَّفْنَا الآياتِ : بيَّنا لهم الحجج والعظات .

فَلَوْلا نَصَرَهُمْ : هَلَّا نصرهم .

قُرْبَاناً : أي ما يُتقرَّب به إلى الله .

إِفْكُهُم : كذبهم .

يَفْتَرُون : يختلقون ويكذبون .

صَرَفْنَا : وجَّهنا .

نَفَراً : جماعة بين الثلاثة والعشرة .

أَنْصِتُوا : أي اسكتوا لاستماع القرآن .

قُضِيَ : فرغ محمد ﷺ من قراءة القرآن .

وَلَّوْا : انصرفوا .

كِتَاباً : المراد به القرآن .

وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ
بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ
بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ
يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ
فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ
مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

شــرح المفــردات

أجِيبوا دَاعِيَ اللَّهِ : اجيبوا محمداً إلى ما دعاكم إليه من الهدى .

يُجِرْكُم : يحميكم ويمنعكم .

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونه أولِيَاءُ : وليس له غير اللَّه من نصراء .

بِمُعْجِزٍ في الأرض : بمفلت من عذاب اللَّه .

يَعْيَ : يتعب .

أولو العَزْم : ذوو الحزم والثبات والصبر .

بلاغ : أي هذا القرآن به كفاية في الموعظة .

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لهم : أي ولا تستعجل حلول العقوبة بهم .

الفاسِقُون : الذين عصوا الله وخرجوا عن طاعته .

تابع سُورَة الأحقاف

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى التذكير بما حلّ بقوم عاد جزاء كفرهم :

﴿ واذْكُرْ أخَا عَادٍ إذْ أنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ ، إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(٢١) .

عاد : قوم تردّد ذكرهم في القرآن وهم من العرب البائدة الذين أهلكهم اللّه فلم يُبق منهم أحداً جزاء كفرهم ، وقد أرسل اللّه إلى عاد نبياً منهم هو (هود) عليه السلام ، وقد وصفه القرآن بأنه « أخو عاد » أي أنه أخوهم في النسب وهم يعرفونه صادقاً فيجب عليهم أن يتبعوه . ومساكن عاد كانت بالأحقاف : أي الرمال ، ويرى المؤرخون أن موضعها بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر ، أي في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب .

فاللّه يقول في الآية السابقة : واذكر يا محمد لقومك قصة النبي هود إذ أرسله اللّه إلى قومه ـ قبيلة عاد ـ الساكنة بالأحقاف ، فخوفهم نبيهم أن تحل بهم نقمة اللّه إن استمروا على كفرهم ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُر من بين يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده وجاءوا بمثل الدعوة التي دعا بها قومه وهي : ترك عبادة الأصنام والدعوة إلى عبادة اللّه وحده ﴿ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللّه ﴾ وإلاّ فليترقبوا عذاب يوم عظيم في الدنيا[1] قبل الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أما جواب قبيلة عاد على إنذار نبيهم بعذاب يوم عظيم فهو قولهم :

---

(١) يدل على ذلك ما جاء في القرآن بعد ذلك ﴿ بل هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ ألِيمٌ ﴾ .

﴿ قالوا أجِئْتَنَا لِتَأفِكَنا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إنَّما العِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أرَاكُم قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

لقد قالوا لنبيهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأفِكَنَا عن آلِهَتِنَا ﴾ أجئتنا بهذه الدعوة إلى اللّٰه والإنذار بعذابه لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فأتنا بما وعدتنا من العذاب إن كنت صادقاً بأنك نبي ، فيجيبهم هود : ﴿ إنَّما العِلْمُ عند اللّٰهِ ﴾ أي إن وقت مجيء العذاب عِلْمُهُ عند اللّٰه ﴿ وَأُبَلِّغُكم مَا أُرْسِلْت بِهِ ﴾ وإنما أنا رسول اللّٰه إليكم لأبلّغكم ما أرسلني به من دعوتكم إلى عبادة اللّٰه وحده ، وتحذيركم من عذاب اللّٰه إن بقيتم على كفركم ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ ولكني أراكم قد ركبكم الجهل فما تميزون بين ما ينفعكم أو ما يضركم ، أو تجهلون وظيفة الرسل وهي الإنذار المطلق دون تحديد وقت العذاب .

ثم يذكر القرآن نوع العذاب الذي حلّ بقوم عاد :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أوْدِيَتِهِمْ ، قَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِينَ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) .

والعارض : السحاب الذي يعترض في أُفق السماء . فلقد حُبس المطر عن ديار عاد مدة طويلة ، ثم ساق اللّٰه سحابة سوداء ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أي هذا الذي وُعدنا به سحاب فيه الغيث ، ولكن جاءهم الرد الإلٰهي ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِه ﴾ أي هذا هو العذاب الذي استعجلتم به ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهي الريح الشديدة البرودة التي

استمرت سبع ليال وثمانية أيام على ما جاء في سورة الحاقة ، وهذه الريح ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كل شيء مرّت به من قوم عاد وأرزاقهم ﴿ فأَصْبَحوا لا يُرَى إلاّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ أي بادوا كلهم عن آخرهم ولم يعد يُرى إلاّ مساكنهم الخاوية ﴿ كَذَلِكَ نَجْزي القَوْمَ الْمُجْرِمِين ﴾ أي هذا حكم اللّه فيمن كذب رسله وخالف أمره ، وهذا تهديد في الوقت نفسه لكفار مكة ، ولكل كافر مجرم يأتي بعدهم إلى يوم القيامة .

أما مصير هود عليه السلام فقد ذكر القرآن أن اللّه أنجاه ومن معه من المؤمنين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنوا مَعَه ﴾ هود : ٥٨ . وكيفية نجاته لم يأت تحديدها في القرآن .

ثم تنتقل بنا الآيات وفيها خطاب لكفار مكة تعقيباً على ما حلّ بقوم عاد :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ[1] ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُم وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُون بآيات اللّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢٦) .

فاللّه سبحانه يقول لكفار قريش : ولقد مكنّا عاداً في الأرض فيما لم نمكنكم فيه وأعطيناهم من النعم ما لم نعطكم منها من كثرة الأموال وبسطة الأجسام وشدة الأبدان ، ﴿ وَجَعَلْنَا لهم سَمْعاً وأبْصاراً وأفْئِدَةً ﴾ وجعلنا لهم سمعاً ليستعملوه في سماع الأدلة على صدق نبوّة نبيهم ، وجعلنا لهم

---

(١) إن مكنـاكم فيه : إن هنا نافية ، أي فيما لم نمكنكم فيه ، ومعنى مكن : ثبت ووطد وأطلق يده فيه .

أبصاراً ليتأملوا بها أدلة وجود اللّه ووحدانيته ، وجعلنا لهم عقولاً ليميّزوا بها الضار من النافع ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم سَمْعُهُمْ ولا أبصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولكن لم ينفعهم سمعهم ولا أبصارهم ، ولا عقولهم إذ لم يستعملوها فيما أعطُوها له ولم يعملوا بما ينجيهم من عقاب اللّه ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي كانوا يكذّبون بحجج اللّه وهم رسله ، أو المعجزات التي جاءت على أيديهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ونزل بهم ما سخروا به من العذاب .

ويتابع القرآن تهديده لكفار قريش :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(٢٧ ـ ٢٨) .

فاللّه يذكرهم بما أهلك حول مكة من القرى التي كذّبت رسلها كعاد وثمود وسبأ وقوم لوط ، وكان مشركو مكة قد سمعوا أخبار هذه القرى وما أصابها من هلاك ورأوا آثارها في رحلاتهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي وبيّنا لهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا . ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ﴾ أي فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب ﴿ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ﴾ أي أصنامهم التي اتخذوها من دون اللّه آلهة واتخذوا عبادتها « قُرباناً » يتقربون بها إلى اللّه في زعمهم ، ولكن أصنامهم ﴿ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي غابوا عنهم فلم تجبهم ولم تغثهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ذلك : إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم ، وإفكهم : كذبهم، حيث كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى اللّه وتنصرهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ وما كانوا يختلقون بأن الأصنام هي جديرة بالعبادة .

وبعد أن سفَّه القرآن عبادة الأصنام انتقل القرآن إلى الحديث عن طائفة من الجن استمعت إلى القرآن واستجابت لما فيه من الهدى والحق .

والجن هو عالم مغيب عن الأنظار تحدَّث القرآن عنهم وأن لهم القدرة على إغواء الناس وإضلالهم ، ولكن لا سلطان لهم على الذين آمنوا ، وأن منهم المؤمنين ومنهم الكافرين ، وأنهم يتناسلون وغير ذلك مما أورده عنهم .

والجن كان لهم في أذهان العرب قبل الإسلام صورة قوية مرعبة فنسبوا إلى الجن أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب ، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة ، إنها عناصر مخيفة مرعبة تؤذي من يؤذيها ومن لا يؤذيها ، وتلحق به الضرر والأمراض ، إنها في نظرهم آلهة ، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها .

وعدم رؤيتنا للجن لا يعني أنهم غير موجودين ، وبالتالي لا يستدعي إنكارهم فهناك كثير من ظواهر الكون لا تزال محجوبة عن البشر ، وفي كل فترة من الزمن يكشف لنا العلم بعض أسرار ظواهر الكون ، فهل كانت قبل اكتشافها عدماً ، ثم وُجدت بعد أن اكتشفها الإنسان .

أما القرآن فقد صرح بأن اللّه خلق الجن والإنس لعبادته[1] ، كما صرح في هذه السورة بأن بعض الجن أصغوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قوم منذرين :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاّ ليَعْبُدون ﴾ .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَق وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فالله سبحانه يقول : واذكر أيها الرسول إذا وجّهنا إليك جماعة من الجن وهيأناهم للاستماع إلى القرآن وأنت تتلوه ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ فلما حضروا قراءتك للقرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا مستمعين ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلُّوا إلى قَوْمِهم مُنْذِرين ﴾ فلما فرغت أيها الرسول من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مؤمنين يدعونهم إلى الإيمان ويحذرونهم من الكفر ، قائلين لهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتاباً أُنزل مِنْ بَعْدِ موسى ﴾ إنّا سمعنا كتاباً يُدعى القرآن ، أنزله الله على محمد بعد رسالة موسى ، هذا القرآن ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدقاً لما جاء في الكتب الإلهية السابقة من توحيد الله ، وعبادته وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وهذا القرآن ﴿ يَهْدي إلى الحق وإلى طريق مُستقيم ﴾ أي يرشد إلى الحق وإلى الطريق القويم .

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله هؤلاء النفر المؤمنون من الجن لقومهم :

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ[١] وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليم . وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ في ضَلال مُبين ﴾(٣١ ـ ٣٢) .

---

(١) من ذنوبكم : أي بعض ذنوبكم ، لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان فقط كذنوب ظلم الناس ، وغفرانها يكون برد المظالم إلى أهلها وإعطاء الحقوق إلى أصحابها .

أي يا قومنا أجيبوا رسـول اللّه محمداً إلى مـا يدعـوكم إليه من الهـدى وصـدّقوا بـرسالتـه يغفر لكم بعض ذنـوبكم ﴿ ويُجِرْكُم مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وينقذكم من عذابٍ مـوجع ، ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللّهِ ﴾ ومن لا يـستجب لدعوة محمد ﷺ ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ ﴾ فلن يُعجـز اللّه عن أخذه وإن هرب في الأرض كل مهـرب وليـس بمفلت من عذاب اللّه ﴿ وَلَيْسَ لـه من دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ وليـس له من دون اللّه نصراء يمنعونه من عقـابه ، وهؤلاء الذين لا يؤمنون بنبوة محمد وبما جاء به من الهدى هم في ضلال واضح .

فالذي يمكن أن يستفاد من الآيات السابقة هو أن الجن الذين كان لهم في أذهان العرب قبل الإسلام هـذه الصورة المخيفـة آمنوا بـالقرآن بمجـرد سماعه وذهبوا إلى قومهم منذرين ، فلماذا يظل الكافـرون على ضلالهم ، ولا يـعـطون القـرآن ما يستحقـه من اهتمـام وتفكيـر ، فيـدركـون أنـه وحي إلّهي ، ويـستجيبون لما يدعوهم إليه محمد ﷺ من الهدى .

وبعد الكلام عن الجن تعـود بنا الـسـورة إلى الكلام عن البعث وعـدم استحالته عقلاً :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بلى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٣) .

أي ألم يتفكر المنكرون للبعث ويعلموا أن اللّه الذي خلق الـسمـاوات وما فيها من بـلايـين الأجرام الـسمـاوية ، وخلق الأرض ومـا فيها من سهـول وجبـال ووديـان وصنـوف النبـات والحيـوان ، وأنه سبحـانـه ﴿ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعب بخلقهن ، أليـس الـذي خلق السمـاوات والأرض ﴿ بِقَـادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ هـذا الشطر من الآيـة أتى الجواب عليـه

سريعاً مفحماً لا مجال فيه للجدال ﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ نعم إن قدرة اللّه ليس لها حدود فهي قادرة على كل شيء .

وبعد أن وَضُحَ الحق لكل مبصر تأتي الآية التالية مبينة ما سيلقاه الذين يصرون على الكفر من عذابِ يوم القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقوا العَذَابَ بِما كُنْتُم تَكْفُرُونَ ﴾ . (٣٤) .

ويوم القيامة يُري اللّه الكفار النار ويظهرها لهم تمهيداً ليعذبوا بها ، ثم يُقال لهم تأنيباً وتوبيخاً : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ ﴾ فيجيبون في ذلة وخضوع : ﴿ بَلى وَرَبِّنَا ﴾ هكذا يقسمون بربهم على الحق الذي أنكروه في دنياهم ، ولكن هذا الإقرار بالحق يأتي متأخراً فقد فات الأوان ، واستحقوا وعيد اللّه بالعذاب جزاء كفرهم ، عندئذٍ يلقون في النار ويُقال لهم : ﴿ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ثم يختم اللّه هذه السورة بوصيّة رسوله محمد ﷺ بالصبر على ما يلاقيه من قومه من أذى واضطهاد ، لأن الصبر من صفات أولي العزم من الرسل :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ سَاعةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾(٣٥) .

فاللّه يأمر رسوله محمداً بالصبر على ما يلاقيه من قومه من أذى واضطهاد ، والاقتداء بمن صبر قبله من الرسل الذين وصفهم اللّه بـ « أولي العزم » أي أولي الجد والثبات والصبر . أما الرسل المقصودون بأولي العزم

فقد قيل إنهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد . وقيل إنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام لأن اللّه تعالى قال بعد أن ذكرهم ﴿ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِه ﴾ وقيل كل الرسل كانوا أولي عزم .

فوصية اللّه لنبيه بالصبر كما صبر قبله الرسل فيها من التشجيع والمواساة له الشيء الكثير ، فالذي لاقاه من أذى واضطهاد من قومه فقد لاقى مثله الأنبياء قبله وكان النصر حليفهم ، فليقتد بهم في الصبر والاحتمال ، ولا يتقاعس عن دعوته مع هؤلاء الكافرين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ كأنهم يوم يرون عذاب اللّه الذي أوعدهم به في الدنيا ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعةً مِنْ نَهار ﴾ فشدة العذاب في الآخرة وطول مدته ينسيهم المدة التي عاشوا فيها في دنياهم فكأنها ساعة من نهار ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا القرآن فيه الكفاية من الموعظة ، أو هو تبليغ من الرسول لهم ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ أي وما يهلكُ اللّه بعذابه إذا أنزله إلّا القومَ الذين خالفوا أمره وخرجوا عن طاعته .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

أبرز المواضيع التي تعالجها هذه السورة هي الحث على القتال دفاعاً عن العقيدة ، ولهذا تسمى أيضاً سورة القتال ، إذ القتال ظاهرة عامة في موضوعها . فهي تبين الحكمة من القتال مع تكريم الاستشهاد والشهداء ، ووعد بنصر المؤمنين وإنذار بهلاك الكافرين مع بيان حال الفريقين في الآخرة حيث المؤمنون في جنات النعيم والكافرون في عذاب الجحيم .

بالإضافة إلى ذلك تكشف السورة عن حقيقة المنافقين وخصالهم ، وتنذرهم بعذاب من الله .

وفي هذه السورة دعوة للمؤمنين لاعتماد العقل والعلم عند الأخذ بالعقيدة ، مع الدعوة لتدبّر القرآن وفهمه ، كما أن فيها حَثّاً على الإنفاق في سبيل الله ، لأن فائدة الإنفاق تعود على المنفق ذاته .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ
كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ

شرح المفردات

صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ : اعرضوا عن الإسلام ، أو صرفوا غيرهم عن الدخول فيه .

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ : ابطل اللّه كيدهم ، أو لم يقبل اللّه صالح أعمالهم .

وآمَنوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ : وآمنوا بالقرآن الذي أنزله اللّه على محمد .

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم : محا اللّه ما عملوا من السيئات .

أَصْلَحَ بَالَهُمْ : اي اصلح حالهم وأمورهم بالتأييد والتوفيق .

يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ : يبين اللّه للناس الأمثال من خيبة الكفر وانتصار الإيمان ليعتبروا .

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاقتلوهم بضرب رقابهم ليكون الموت أسرع لهم .

أَثْخَنْتُمُوهُمْ : اضعفتموهم وأوهنتموهم بالجراح .

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾

شرح المفردات

فَشُدُّوا الوَثَاقَ : فأسروهم وشدوا ربطهم بالحبل أوغيره .

فَإِمَّا مَنًّا : فإما أن تطلقوا الأسرى بغير فدية .

وَإِمَّا فِدَاءً : وإما إطلاق سراحهم في مقابل مال أو نحوه .

تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا : يضع المحاربون أسلحتهم ، وتنقضي الحرب .

لِيَبْلُوَ : ليختبر .

فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها ويذهبها سدى بل يوفيهم ثوابها .

عَرَّفَهَا لَهُم : بيّن لهم منازلهم في الجنة .

يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ : يقويكم على اعدائكم .

فَتَعْساً لهم : فشقاء أو خيبة لهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ : فأبطل اعمالهم فلم يقبلها .

دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : أطبق الهلاك عليهم .

مَوْلَى : ناصر ومعين .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ايضــاح و دروس

تستهـل هذه السـورة بتحذيـر الكافـرين من عاقبـة كفرهم مـع تـطمين المؤمنين بحسن العاقبة :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (١ ـ ٣) .

فالذين كفروا ، أي جحدوا وجـود اللّه ، أو جحدوا وحـدانيته وعبـدوا غيـره ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أعرضـوا وامتنعـوا عن الـدخـول في الإسلام ، أو صدوا غيرهم عن الدخول فيه ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبـطل اللّه مـا عملوا من الكيد لـرسـول اللّه ودينـه ، وجعـل أعمـالهم بعيـدة عن الهـدى والرشـاد لا تحظى بـالأجـر والثـواب ، أمـا الـذين ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين صدّقوا بوجـود اللّه وعملوا بطاعتـه ، واتبعوا أمـره ونهيه ﴿ وآمنوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ أي صدقـوا بالقـرآن الذي أنـزله اللّه على محمـد ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وهـو الـدين الحق البـاقي على مـرّ العصـور ، هؤلاء المؤمنـون ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ والتكفيـر : الستـر

والتغطية ، أي محا الله وستر ما عملوا من السيئات قبل الإيمان فلم يؤاخذهم بها ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي أصلح شأنهم وحالهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق ، وفي الآخرة بحسن الجزاء . ونحن نلمس ونرى أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات يشعرون براحة الضمير وطمأنينة القلب ، فضلاً عن أنهم يكونون الركيزة الصالحة للمجتمع يحملون إليه الخير ، وينشرون في أرجائه الهدى .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ ﴾ أي ذلك الأمر السابق من إضلال الكافرين ، والتكفير عن سيئات المؤمنين ، سببه : أن الكافرين اتبعوا الباطل - أي الشيطان - فأطاعوه ، والباطل ليس له مكان وثبات في هذا الكون القائم على الحق ﴿ وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فالمؤمنون اتبعوا الحق الذي جاءهم به محمد من ربهم ، وكل من يتبعه فهو في فوز وفلاح . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي هكذا يبين الله للناس أحوال الفريقين : المؤمنين والكافرين ، وأوصافهما الجارية في الواقع مجرى الأمثال من خيبة الكفر وانتصار الإيمان .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها دعوة للمؤمنين لقتال الكافرين الذي يصدّونهم عن دينهم مع بيان ثواب الذين يُقتلون في سبيل الله :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كفروا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بعضكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِين قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ . (٤ - ٦) .

فـالله سبحانـه يخاطب المؤمنين : ﴿ فَـإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفـروا فَضَـرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أي إذا لقيتم الذين كفروا في الحرب[١] فاضربوا رقابهم وضرب الرقاب عبارة عن القتل .

فـالزمن الـذي نزل فيـه القرآن كـانت الحرب مـع العدو تتم بـواسـطة الإلتحام به وجهـاً لوجـه ، وكان من أهم أسلحتهـا السـيف ، ولذا أمـر الله بضرب رقاب العدو[٢] .

﴿ حَتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ أي حتى إذا أضعفتم قوتهم بالقتل والجـراح فلم يستـطيعوا المقـاومة والنهوض من جراحاتهم ﴿ فَشُـدُّوا الْـوَثَـاق ﴾ أي فـأسروهم وأحكمـوا قيدهم ، فـالغايـة من القتال بمـوجب نص القرآن هـو إخضاع الخصم لا إبادته .

وبعــد أن يصبـح العــدو أسيـراً ، فللمسـلمين الحق في أن يختــاروا

---

(١) هـذه الآية دعـوة المسلمين لقتال الكـافر الحـربي فقط . أما الكـافر المعـاهـد فله عهـده وحـرمته ، والكـافر الـذمّي الـذي دخـل في حكم المسـلمين يسـوي الإسـلام بينـه وبين المسلمين في جميع الأحكام القضـائية والسـياسية ويوجب حمايته والدفاع عنه . والإسـلام لم يأمر أتبـاعه بـالقتال إلاّ بعـد أن اضـطهـد الكافـرون المسـلمين وأخرجـوهم من ديارهم وصدوهم عن دينهم بألوان من العذاب وفي هذا يخاطب القرآن المؤمنين : ﴿ وَقَاتِلُوا في سَـبِيلِ اللهِ الذين يُقاتلونكم ولا تَعْتَدوا إنَّ اللهَ لا يُحب المعتدين ﴾ .

(٢) عينت الرقاب في هذه الآية لأن ضربها أنجع وسيلة للإجهاز السريع على المضروب بغير تعـذيب له ولا تمثيـل به ، إذ أنـه من الثابت علميـاً أن الرقبـة حلقة الاتصـال بين الرأس وسـائر الجسـد فإذا قـطع الجهاز العصبي شلت جميـع وظـائف الجسـم الـرئيسيـة ، وإذا قطعت الشرايين والأوردة في الرقبة توقف الدم عن تغـذية المخ ؛ وإذا قطعت الممـرات الهـوائية وقف التنفس ، وفي جميـع الحـالات تنتهي الحيـاة سـريعـاً (عن المنتخب في تفسـير القرآن) .

ما يرونه الأصلح مما حدده النص القرآني : ﴿ فإما مَنًّا بَعْدُ وَإما فِدَاءً ﴾[1] فالقرآن خيّر المسلمين بين المن على الأسرى بالحرية دون مقابل ، أو مقابل فدية كما وردت آيات في القرآن تأمر بقتل المحاربين كقوله تعالى : ﴿ واقتُلُوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ البقرة ١٩١ . هكذا فعل رسول الله ، فقد قتل بعضاً منهم بسبب إجرامهم ، وأطلق سراح آخرين مقابل فدية ، أو بدون مقابل ، واسترق البعض ليكون ذلك تشريعاً في مواجهة حالات ومعاملات متبادلة بين الأمم لا تعالج بغير هذا الإجراء ولكن التشريع الإسلامي أحاط معاملة الأسرى بجميع قواعد العدل والرحمة .

وإطلاق سراح الأسرى يكون وقته ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي حين يضع أهل الحرب سلاحهم ، وأوزار الحرب آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره ، وهذا ما يحصل حالياً إذ يحتفظ المحاربون بالأسرى حتى انتهاء الحرب ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي هذا ما أمركم به من

---

(١) هذه الآية الوحيدة التي تعرضت لأسرى الحرب وهي كما نرى لم تذكر الاسترقاق للأسرى حتى لا يكون هذا تشريعاً للبشرية في المدى البعيد . والإسلام بإباحته الاسترقاق أحياناً فإن هذا الحكم هو مجرد إباحة ولا يعني الإلزام وإنما هو أمر متروك لحكمة إمام المسلمين لمعاملة أعداء الإسلام بالمثل ، لأن الاسترقاق كان شائعاً في عهد الإسلام وبعد عهده بقرون عدة في كثير من أقطار العالم . فإذا حدث أن اتفقت الدول على عدم الاسترقاق كما يحصل حالياً فإن الإسلام يرجع إلى قاعدته الأساسية في معاملة الأسرى ﴿ فَإمَّا مَنًّا بعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ فهذه الآية ـ كما نرى ـ حصرت مصير الأسرى في هاتين الحالتين فقط .

هذا وإن الإسلام دعا إلى حسن معاملة الرقيق وبيّن الثواب العظيم في الآخرة للذين يطلقون سراح أرقائهم في كثير من آيات القرآن ، وجعل عتقهم كفارة لبعض الذنوب ، كما أن الإسلام خصص قسماً من أموال زكاة المسلمين لتصرف في مساعدة الأرقاء لاستعادة حريتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه النظم والتشريعات في العالم تسوم الرقيق أشد أنواع العذاب والظلم وتستغله في أشق الأعمال .

الجهـاد ولو شـاء الله لأهلك الكافـرين وانتقم منهم بدون قتـالكم لهم أيها المؤمنون ﴿ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي ولكن ليختبر إيمـانكم فيعلم المجاهدين منكم والصابرين كما يختبر الكافرين بكم فيعاقب بأيـديكم من شاء منهم .

﴿ والَّـذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِـلَّ أعْمَالَهُمْ ﴾[1] فـالذين قُتلوا دفاعاً عن دين الله أو قاتلوا كما جاء في بعض القراءات فالله لن يضيع ثواب أعمـالهم بل يجعـل ثوابهـا النعيم في الآخرة ﴿ سَيَهْـدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم ﴾ أي يهديهم ربهم إلى الجنة ، ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئـاتهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي عرّفهم منازلهم فيها فلا يستدلون عليها ولا يخـطئونهـا ، وقيل : عـرّفها بمعنى طيبهـا لهم لأن العرف هـو الرائحـة الزكية .

ثم تـأتي الآيات التـالية وفيهـا وعد من الله بنصـرة المؤمنين إن نصروا دينه :

﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَنْصُـرُوا اللَّهَ يَنْصُـرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْـدَامَكُمْ . وَالَّذِين كَفَرُوا فَتَعْسـاً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُـوا مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٧ ـ ٩) .

فـالمسـلمون الأوائـل تجسد فيهم هـذا المفهوم القـرآني ، نصـروا الله

---

(١) هذه الآية أنزلت يوم معركة أحد وقد فشت في المسـلمين الجراحات والقتـل ، وقد نـادى المشـركون يومئذٍ أعلُ هُبَل (صنم يعبدونه) فنادى المسـلمون : الله أعلى وأجـل ، فنادى المشركون يوم بيوم إن الحرب سجال إن لنـا عُزّى ، ولا عُـزّى لكم ، قال رسـول الله : « الله مولانا ولا مولى لكم » إن القتلى مختلفة ، أما قتلانا فأحياء يُرزقـون ، وأما قتـلاكم ففي النار يُعذّبون » .

فنصرهم وهزموا جيوش الفرس والروم على الرغم من قلة عددهم وضعف إمكانيتهم المادية .

وليس المراد بنصرة اللّه أنه سبحانه بحاجة لنصرتنا فهو القوي الغني عن العالمين ، وإنما المراد نصرة دينه ، وتنفيذ أوامره التي فيها العدل والخير والحق .

واللّه سبحانه يعد الذين ينصرون دينه بقوله : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1] وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ ﴾ وتعساً تأتي بمعان منها : هلاكاً لهم ، أو شراً لهم ، أو خيبة لهم ، ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جعل اللّه أعمالهم على غير هدى ولا رشاد ولا فائدة ، فلم تُقبل حسناتهم لأنها لم تقم على أساس الإيمان باللّه والإخلاص له ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ معنى ذلك : أنهم كرهوا ما أنزل اللّه ، وهو القرآن الذي يحتوي على التوحيد والشرائع والأحكام التي تخالف ما ألف الكفار من عقائد وتقاليد ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ اي أبطل اللّه ثواب أعمالهم فلم تحقق ثمرتها المرجوّة .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها دعوة للنظر والاعتبار بما آلت إليه الأمم السالفة من دمار وهلاك جزاء كفرهم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١٠ ـ ١١) .

---

(١) الأقدام : المراد بها المحاربون أنفسهم وعبر عنها بالأقدام لأن الثبات والضعف يظهران فيها .

فـاللّه سبحانـه يقول : ألـم يسـر هؤلاء المشـركـون في الأرض ـ أثنـاء سفرهم ـ فينظروا ويعتبـروا بما حـلّ بالأمم السـابقة من دمـار وهلاك جـزاء تكـذيبهم لرسـل اللّه ﴿ وَلِلْكَافِـرِينَ أَمْثَـالُهَـا ﴾ أي وللكـافـرين من قـريش المكذبين رسول اللّه محمداً لهم من العذاب العاجل أمثال ما حصل للأمم السابقة الذين كذّبوا رُسُل اللّه تعالى .

هذه الآية من معجـزات القرآن تحقق مضمـونها بعـد سنين قلائـل من نزولها فقد قُتل أكثر المناوئين لرسول اللّه ، وانتصر رسول اللّه على كل من عاداه .

﴿ ذَلِـكَ بِأَنَّ اللّهَ مَـوْلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا ﴾ أي ذلـك الهـلاك الـذي حـل بالكافرين من قبل سببه أن اللّه ناصر الذين آمنـوا ﴿ وَأَنَّ الكَافِـرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أي أن الكافرين لا ناصر لهم .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟

شرح المفردات

يَتَمَتَّعُونَ : ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا .

مَثْوًى لَهُمْ : مسكن لهم ومأوى .

كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه : برهان وحجة وبيان من أمر ربه وهو القرآن الكريم .

كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ : كمن حسن له عمله من الشرك بالله وسائر المعاصي .

واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم : إتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية الله .

مَثَلُ الجَنَّة : وَصْفُ نعيم الجنة .

مَاءٍ غَيْرِ آسِن : ماء غير متغير الطعم والرائحة .

مَاءً حميماً : ماء شديد الحرارة .

ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ
فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ
لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

شرح المفردات

مَاذَا قال آنفاً : ماذا قال الآن أو قبيل هذا الوقت .

وآتاهم تَقْوَاهُم : أعانهم على تقواهم ، أو أعطاهم جزاء تقواهم .

السَّاعَةَ : يوم القيامة .

بَغْتَةً : فجأة .

أَشْرَاطُهَا : علاماتها .

فَأَنَّى لَهُمْ : فكيف لهم ، أو من أين لهم .

ذِكْرَاهُمْ : أن يتذكروا ويتعظوا ويتوبوا إلى الله .

مُتَقَلَّبَكُمْ : تصرفكم في حياتكم .

مَثْوَاكُمْ : إقامتكم واستقراركم في الآخرة ، أو في استقراركم في القبور .

تَابع سُورَة مُحَمَّد

ثم يبين اللّه بعد ذلك مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (١٢) .

فاللّه سبحانه يعدّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيدخلهم في الآخرة جناتٍ تجري من تحت أشجارها الأنهار جزاء إيمانهم ، أما الذين كفروا فهم في حياتهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ﴾ فكما أن الأنعام تأكل وتشرب ولا تدري ما يُهيأ لها من الذبح والنحر ، فكذلك الكفار (يتمتعون) : أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها ، ويأكلون مثل الأنعام أكلًا مجرداً عن الفكر والنظر ، غافلين عن المصير الذي ينتظرهم ، وعن التفكير في الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي أن جهنم هي مأوى لهم يوم القيامة .

للّه ما أروع هذا الوصف للذين يكون همهم الأوحد في الحياة إشباع البطون والتمتع باللذائذ البدنية بما يتساوون فيه مع الأنعام ، غافلين عما أودع اللّه في فطرتهم من شعور يتجه إلى الخالق بالشكر والتسبيح والعبادة ، ومن شعور داخلي يوقظ الضمير ويحاسب النفس مما يسمو بالإنسان إلى أرفع مدارج الكمال .

وبعد تصوير الكفار بهذه الصورة المزرية الشبيهة بالأنعام يأتي الخطاب للنبي ﷺ وفيه تهوين من شأن هؤلاء الكفار الذين آذوه واضطروه إلى إلى الهجرة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾ (١٣ ـ ١٤) .

أي وكثير من أهل قرية يا محمد كانوا أشد بأساً ، وأكثر عدداً من قريتك وهي مكة التي أخرجك أهلها منها فأهلكهم الله جزاء كفرهم وطغيانهم ولم يجدوا ناصراً لهم يُنقذهم من عذاب الله . هذه الآية نزلت لما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ، يومئذٍ نظر إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إليّ ، ولولا أن اهْلَكَ أخرجوني منك لم أخرج عنك .

ثم يوازن القرآن بين المهتدي والضال بقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي أفمن كان على برهان وحجة وبيان من أمر ربه فهو مؤمن به يعبده على بصيرة ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ كالكافر الذي حسَّن له الشيطان قبيح عمله فرآه حسناً ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي واتبع الكافرون ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية الله ، وعبادة الأوثان من غير برهان ولا حجة . وجواب الاستفهام هنا مفهوم ضمناً ، أي أن هناك فرقاً شاسعاً بين الفريقين ولا مجال للمقارنة بينهما .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان ما أعد الله في الآخرة من نعيم للمؤمنين وعذاب أليم للكافرين :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٥) .

وصف اللّه الجنة التي وَعَدَ بها المتقين فقال : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾[١] أي ماء غير متغير الطعم والرائحة ؛ فالقرآن أول ما خاطب العرب العائشين في الصحراء وكان طبيعياً أن يتحدث إليهم بأعز ما يحتاجون له ويتشوقون إليه وهو الماء العذب ، ومن هنا يعدهم اللّه بأنهار من الماء العذب .

ويلي الماء في ضرورته للكائن الحي : اللبن ، وأكثر البشر يعيشون عليه من طفولتهم إلى كهولتهم ، ولهذا يعد اللّه المؤمنين بأنهار من لبن ﴿ لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمه ﴾ أي لم يحمض لطول المقام ، كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

وفي الجنة أيضاً : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْر لَذَّةٍ لِلشارِبينَ ﴾ والخمر كانت ألذ المشروبات عند العرب ، وقد جعلها الإسلام محرمة في الدنيا للأضرار التي تصيب شاربها عقلياً وجسمياً ، أما في الآخرة فقد جعلها اللّه خالية من كل ضرر ، فهي كما جاء وصفها في القرآن ﴿ لا فيها غَوْل[١] وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُون ﴾[٢] أي لا تؤذي الإنسان وتضره وتذهب بعقله .

وفي الجنة أيضاً طيبات أخرى ﴿ أَنْهَار مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها من الشوائب، وزيادة على ذلك ﴿ وَفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي من كل الفاكهة التي تشتهيها النفوس . ثم

---

(١) توجه الآية الكريمة الأنظار إلى أن الماء الراكد المتغير ماء ضار ، وقد قررت الآية الكريمة ذلك قبل كشف المناظر المكبرة (ميكروسكوب) بقرون عدة حيث تبين أن الماء الراكد المتغير مستودع لملايين البكتريا الضارة وغيرها من الطفيليات التي تصيب الناس والأنعام بأمراض شتى (عن المنتخب في تفسير القرآن) .

(١) لا فيها غول : ليس فيها ضرر .

(٢) ولا هم عنها ينزفون : ولا يسكرون بسببها .

يقارن القرآن بين هذا النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين بقوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أي فهل من يقيم في هذا النعيم يشابه من هو خالد في النار ، وإضافةً إلى ذلك ﴿ وَسُقُوا ماءً حميماً فَقَطَّع أمْعَاءَهُمْ ﴾ والماء الحميم هو الماء الشديد الحرارة الذي يشربه الكفار فيقطّع أمعاءهم . ويلاحظ أن الله تعالى قابل بين أشربة المؤمنين اللذيذة وشراب الكافر وهو الماء الحار الذي يقطّع الأمعاء .

ونستدرك القول في النعيم المادي الذي ذكره القرآن فقد يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائد المادية ، ولكن يجب أن لا ننسى أن الطبيعة البشرية تسر لهذه اللذائذ ، فليس في طبيعة الإنسان زهد في اللذائذ المادية ولا كراهة لها ، فلا ريب أن الوعد بالحصول على هذه اللذائذ جزاء العمل الصالح مغرٍ له وحاثٌ عليه ، هذا وإن القرآن لم ينس اللذة الروحية في وصف نعيم الجنة فبعد أن وصف ألواناً من النعيم المادي عقّب على ذلك بقوله : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] أي أن رضوان الله هو أميز من النعيم المادي وأعظم ، وهذا الرضوان هو نعيم روحي صرف .

وبعد أن بيّن القرآن نعيم الأخرة انتقل إلى الكلام عن المنافقين وصفاتهم ، والنفاق نشأ في المدينة المنوّرة حيث اعتز الإسلام فكره أناس من سكان هذه المدينة أن يُعزّ الإسلام ولم يكن بوسعهم محاربته وجهاً لوجه فحاربوه خفية لأنه يقوّض زعاماتهم الباطلة ، وامتيازاتهم الموروثة ، وحرصاً على مصالحهم أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر في قلوبهم ، وصاروا يتحيّنون كل فرصة سنحت لهم للقضاء على الإسلام .

وساعد هؤلاء المنافقين وجود اليهود في المدنية المنورة الذين كانوا

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٢ .

يضمرون العداء للإسلام أيضاً ، فسرعان ما جمعتهم العداوة والكيد لهذا الدِّين الجديد ومعتنقيه ، وأخذوا يتعاونون على حبك المؤامرات ودس الدسائس في كل فرصة تسنح لهم . هؤلاء المنافقون يصف القرآن بعض مواقفهم من الإسلام بقوله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَال آنِفاً أُولَئِكَ الَّـذِينَ طَبَعَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُـوا أَهْواءَهُمْ . وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتَاهُمْ تَقْـواهُمْ . فَهَل يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعـة أن تَـأْتِيَـهُـمْ بَغْـتَــةً فَـقَــدْ جَـاء أَشْـرَاطُـهَـا فَـأَنَّـى لَـهُـم أذا جَـاءَتْـهُـمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ (١٦ ـ ١٨) .

هذه صورة ما كان يفعله المنافقون لبلبلة الخواطر وإشاعة الفتنة والقلق في صفوف المسلمين ، فقد كانوا يستمعون لرسول اللّه كالمسلمين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ولكن ما أن يخرجوا من مجلس رسول الله ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ عندئذٍ يتظاهرون بأنهم لم يفهموا شيئاً ، ويقولون لصحابة رسول اللّه ﴿ قَالُوا للذين أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ أي ماذا قال النبي هذه الساعة ، يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء ، وإن كان قولهم على صورة الاستعلام﴿ أُولَئِكَ الَّـذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ختم اللّه على قلوبهم وأغلقها فلا تعي خيراً لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي اتبعوا ما دعتهم إليه أهواؤهم من الباطل ، ورفض ما جاء به الرسول من الهدى .

وبالمقابل يصف اللّه حال المؤمنن : ﴿ والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ فالمؤمنون اهتدوا بالإسلام فزادهم اللّه إيماناً على إيمانهم ، كما أنه سبحانه ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي أعانهم على تقواهم ، أو أعطاهم

جزاءها ، أو بيّن لهم ما يتقون ، وتقوى الله هي خشيته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ثم يخاطب الله المنافقين : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ السَّاعَةَ[1] أنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فهل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم القيامة فجأة تباغتهم ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أشراطها : جمع شَرَط بمعنى العلامة ، أي جاءت علامات تدل على قربها . ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُم ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي من أين لهم أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت القيامة ، فالإيمان حينئذٍ لا ينفع ، والتذكر لا يجدي لأنه إيمان يأس ، وتذكر عن اضطرار وجزع ، وكله لا ينفع صاحبه شيئاً .

أما عن علامات قرب القيامة فقد تحدث عنها رسول الله في عدة أقوال منها قوله : « بعثت أنا والساعة (أي القيامة) كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى »[2] والمراد بهذا التشبيه أن النبي ليس بينه وبين القيامة نبي آخر فهي تليه وتأتي بعده ، وهذه إشارة بقربها[3] .

ومن علامات القيامة : حدوث تغيير في نظام الكون ، يقول النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت

---

(1) الساعة : في اللغة جزء من الليل أو النهار لا يلحظ فيه التحديد وأطلقت الساعة معرفة بالألف واللام في القرآن على يوم القيامة .

(2) رواه البخاري ومسلم .

(3) قد يقول قائل ها قد مضى ألف وأربعمائة سنة تقريباً على نزول القرآن ولم نشهد قيام القيامة ، فنقول : إن هذه المدة ليس لها حساب يُذكر في عمر الكون البالغ ملايين السنين ، ولكن بعثة النبي محمد ﷺ تنبىء عن قرب القيامة بالنسبة لما مضىٰ من عمر الكون .

من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً »[١] .

وبعد ذلك يأتي خطاب الله للنبي وللمؤمنين بأن تكون عقيدتهم بوجود الله ووحدانيته قائمة على العلم لا عن تقليدٍ وجهل :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩) .

أمر القرآن بالاعتماد على العلم عند الأخذ بالعقيدة الإسلامية ، عقيدة التوحيد : بقوله (فاعلم) ، والعلم من أدواته العقل والفكر والنظر والتأمل ، هذه هي السبل لترسيخ العقيدة الإسلامية في النفوس لتكون عن يقين واقتناع ، فالإسلام لا يقول : (آمن ثم فكر) كما هو الحال في بعض الديانات السالفة ، ولكنه يقول : فكّر واعلم لتؤمن عن اقتناع .

ومن عظمة الإسلام أنه لم يعرّف ذات الله وكنهه لأنه فوق إدراك الحواس ، ولكنه عرّفه بعظيم صنعه ، وعجائب خلقه ، ودعا العقل إلى التفكر في الكون الذي يدل على وجود خالقه :

﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأعراف : ١٨٥ .

﴿ إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الجاثية : ٢ .

فوجود الكون بسمائه وأرضه على هذا النظام البديع المحكم دليل قاطع على وجود الله خالقه ومبدعه وحكمته وعلمه ، فمن المشاهد والمعترف به في حياتنا العامة أن أية صناعة من الصناعات كالساعة والطائرة وجهاز التلفزيون وغير ذلك من ألوف الصناعات الدقيقة تشهد بمهارة

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

صانعها وحذقه وعلمه ، وأنها لم توجد اتفاقاً وصدفة ، فكيف يستقيم في حكم العقل والمنطق أن نلحد بوجود الخالق ، وأن ندّعي أن هذا الكون على اختلاف عوالمه بغير صانع ، سواء أكان ذلك في السماء وما تحتويه من بلايين النجوم والكواكب ، أو في الأرض وما فيها من ملايين الأحياء البرية والبحرية والحشرات والطيور والزواحف ، وأنواع النبات والثمر والشجر ، إنه لا ينكر الخالق إلاّ من أنكر عقله .

والأكثرية الساحقة من فلاسفة الإسلام ومفكريه لم يلحدوا خلافاً لفلاسفة الأديان الأخرى ، لأنهم عرفوا القرآن أولاً فأعطاهم الصورة الصحيحة المقنعة عن وجود اللّه التي لم تؤثر فيها قراءتهم للمذاهب الفلسفية المادية ، وكيف يتصور أن يلحد مفكر وفيلسوف ينتمي إلى الإسلام وهو يعرف أن إسلامه يعتبر العلم أهم أداة للإيمان بالخالق ، كما جاء في القرآن :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إِلَه إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ آل عمران : ١٨ .

فالقرآن جعل شهادة العلماء مع شهادة اللّه والملائكة أهم أدوات الإثبات لوجود اللّه ووحدانيته وعزته وحكمته البالغة وعدالته الشاملة .

وأثبت القرآن أن العلماء هم أشد الناس خشية للّه ﴿ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ .

هذا وإن القرآن يقدم دليلاً منطقياً على وحدانية اللّه فيه كل وسائل الإقناع :

﴿ ما اتَّخَذَ اللّه مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ من إلَه إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ على بَعْض ﴾ المؤمنون : ٩١ .

فلو كان مع اللّه آلهة أخرى لذهب كل واحد منهم بخلقه واستأثر به ، وقد يعلو بعضهم على بعض فتسود الفوضى ، ويختل نظام الكون ، ومن تصور إلّهاً بلا غلبة ، وبلا استئثار بالسلطة فقد تصوره في شأن غير شأنه وطبيعة غير طبيعته .

وبعد هذا الاستطراد لنعد إلى تتمة الآية فإنها بعد أن أمرت باعتماد العلم في مجال العقيدة عقبت على ذلك : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وِلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ هذه الآية وإن كانت خطاباً للنبي[1] ﷺ فهي في الوقت نفسه خطاب للمؤمنين ليطلبوا الغفران لأنفسهم وللمؤمنين لكل ما بدر منهم من ذنوب . وإن في دعوة المؤمن لمشاركة المؤمنين معه في طلب الغفران ، إيحاءً لهم في تجنب الخطايا ، والتعاون على نبذها لما فيها من إغضاب الرب وتدمير المجتمع . هذا وإن الرسول في منصبه الجليل وقربه من اللّه كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وكيف لا يطلب المؤمن الغفران من اللّه والقرآن يصرح : ﴿ واللّه يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ أي يعلم ما تتصرفون فيه من أشغالكم بالنهار ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ ويعلم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل أو مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو النار لا يخفى عليه شيء من ذلك .

---

(١) ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوب الناس فعل القبائح من الصغائر والكبائر .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ

شرح المفردات

سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ : سورة ذكر فيها الجهاد بنص صريح غير قابل للتأويل .

نَظَرَ المغشيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوت : تشخص ابصارهم جبناً وهلعاً كمن اصابته سكرة الموت .

فَأَوْلَى لَهُم : فويلٌ لهم لما أساءوا .

قَوْلٌ مَعْروف : قول مستحسن .

فإذا عَزَمَ الأَمْرُ : جد الأمر ولزمهم الجهاد .

فهل عَسَيْتُم : فهل يتوقع منكم .

تَوَلَّيْتُم : أي توليتم الحكم وصرتم حكاماً ، أو أعرضتم عن دين الله .

وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم : وتقطعوا صلة القرابة والرحم .

أفلا يتدبّرون القرآن : يقرأون القرآن قراءة تفهم وتفكر .

أم عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُها : أم يتلقون القرآن بقلوب مقفلة بالكفر والعناد .

ارتدُّوا على أَدْبَارِهِم : رجعوا إلى الكفر .

سَوَّل لَهُم : زيّن لهم القبيح حتى رأوه حسناً .

أملى لهم : غرهم وخدعهم ومد لهم في الأماني الباطلة .

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

شرح المفردات

أدبارهم : جمع الدُّبر ، وهو مؤخر كل شيء وظهره .

فَأَحْبَطَ أعمالهم : فأبطل أعمالهم وحرمهم من ثوابها .

أَضْغَانَهُم : أحقادهم الشديدة الكامنة .

لأَرَيْنَاكَهُم : لعرفناك إياهم بدلائل تعرفهم بها .

بِسِيمَاهُم : بعلامتهم التي تميزهم عن غيرهم .

في لَحْنِ القَوْلِ : ما في كلامهم من تعريض أو تورية لإخفاء مرادهم .

لَنَبْلُوَنَّكُمْ : لنختبركم بالتكاليف الشاقة .

نَبلوَ أخبَارَكُمْ : نختبر أعمالكم فنعلم حسنها من قبحها .

شاقُّوا الرسُول : خالفوا وعادوا رسول الله محمد ﷺ .

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

شرح المفردات

فَلَا تَهِنُوا : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

وَتَدْعُوا إِلى السَّلْمِ : وتدعوا إلى السلام والصلح .

وأنتم الأَعْلَوْنَ : الفائزون الغالبون .

وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُم : ولن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم .

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلبها بإلحاح .

تابع سورة محمد

ثم ينتقل بنا القرآن إلى وصف حال المنافقين عندما يسمعون أوامر الله بالقتال دفاعاً عن الإسلام :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمنوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعةٌ وَقَولٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ (٢٠ ـ ٢١) .

فالمؤمنون الصادقون كانوا يتمنون دوماً أن يُنَزِّلَ اللّه أمراً صريحاً يبيح لهم القتال دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمنوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي قالوا : هلاّ نزلت سورة نؤمر فيها بالقتال ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ فإذا أُنزلت سورة وكانت واضحة وصريحة تنطق ألفاظها بحقيقة المقصود منها ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ ﴾ وذُكِرَ فيها الأمر بقتال المشركين ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي رأيت الذين في قلوبهم شك في دين اللّه وهم المنافقون ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد نظر المحتضر الذي يشخص بصره هلعاً من الموت ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ هذه الجملة هي وعيد من اللّه لهؤلاء المنافقين بمعنى : فويل لهم ، أو قارب ما يهلكهم ، أما قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْروفٌ ﴾[1] فهو كلام مستأنف ومعناه : طاعة للّه وقول مستحسن أحسن وخير لهم . وتأتي أوْلى بمعنى أحق وأفضل ، والكلام بعدها متصل مما يؤدي نفس المعنى .

---

(١) معروف : اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسْنُهُ .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ أي فإذا جدّ الأمر ، ولـزم فرض القتـال كرهـوه أو تخلفـوا عن القتـال . فكـرهـوه أو تخلفـوا جـواب « إذا » وهـو محـذوف ، ومعلوم ان (إذا) حرف شرط يحتاج إلى جواب .

﴿ فَلَوْ صَـدَقُـوا اللَّهَ لَكَـانَ خَيْـراً لَهُمْ ﴾ فلو صـدقـوا الله في الإيمـان وامتثلوا ما أمرهم به من القتال لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة .

ثم يبين القرآن بعد ذلك المصير السيء الذي يؤول إليه كل من يعرض عن هدي الله ويقطع صلة الرحم :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم ﴾(٢٢ ـ ٢٣) .

﴿ فَهَـلْ عَسَيْتُمْ ﴾ هذه العبـارة جاءت على سبيـل التـوبيخ والتقـريـع لهؤلاء المنـافقين بمعنى : هل يتـوقـع منكم ﴿ إنْ تَوَلَّيْتُم ﴾ وهـذه العبـارة تحتمـل معنى : تولي أمـور الناس ، أو معنى : الإعـراض عن الإسـلام . فيكون المعنى : فهل يتوقع منكم إن توليتم الحكم وأمور الناس أن تفسـدوا في الأرض بالظلم ، فتعصوا الله ، أو بمعنى : فلعلكم أو يخاف عليكم إن أعرضتم عن القرآن وفـارقتم أحكامـه أن تعودوا إلى جـاهليتكم فتعصوا الله وتفسـدوا في الأرض .

﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ وتقطيع الأرحام يكون بالبغي والـظلم والقتل ، والرحم : هي القرابة ، وتشمل ناحيتين :

قـرابـة عـامـة بين المؤمنين وهي التي وصفهـا الله بقـولـه : ﴿ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَة ﴾ والتي يجب مـراعـاتهـا بـالمحبـة والنصيحـة والعـدل والنصرة .

وقرابة خاصة ، وهي رابطة القرابة عن طريق النسب من طرفي الرجل أبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة من النفقة على المحتاجين ، وتفقد أحوالهم وتفضيلهم على غيرهم بالبر والإحسان .

وجزاء الذين أفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ أي أصابهم بالصمم عن سماع الحق ومواعظ الله ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي أعماها عن رؤية الخير فلا يتبينون حجج الله .

وبعد ذلك تأتي الآية الكريمة داعية إلى التأمل في معاني القرآن وتفهمه للعمل بموجبه :

﴿ أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أقْفَالُها ﴾ (٢٤) .

أي أفلا يتأمل هؤلاء المنافقون في معاني القرآن ، ويتبصّرون ما فيه من الهدى ويعلمون ما اشتملت عليه آياته من المواعظ الزاجرة ، والحجج الظاهرة التي تزجرهم عن الكفر بالله والعمل بمعاصيه ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾ وأقفالها جمع قفل ،وهو ما يغلق به الباب إغلاقاً محكماً ، وأقفال القلوب هي الكفر والعناد ونحوهما مما يصعب معه تقبّل الدين الحق ومبادئه القويمة ، وإذا أُقفلت القلوب فهي لا تفهم ولا تعقل ولا تتدبّر ما يتلى عليها من آيات القرآن .

هذه السمة التي يرسمها الله للمنافقين على عهد النبي ﷺ تسري على من يسير سيرهم ، وها نحن اليوم بعد أربعة عشر قرناً نرى كثيراً من المسلمين يسيرون على خطى هؤلاء المنافقين فيتقاعسون عن الجهاد في سبيل الله وطاعة أوامره بسبب ضعف إيمانهم وعدم تدبرهم للقرآن ،

وإعـراضهم عمـا جـاء بـه من الهـدى ، إنهم يسمعـون القـرآن يتلى في الإذاعات ولكن يسمعونه للطرب لا للفهم والتدبر والإتعاظ والعمـل بمبادئـه وأحكامه ، لا يفهمون ما يتلى عليهم ، ولا يحاولون تدارس القرآن لفهمه . بل زاد في الطين بلّة جعلهم القرآن يُتلى على الأموات ، ومصدراً لاستدرار الرحمات ، مبتعدين كل البعد عن غرضـه الحقيقي وهو أنـه هدى ودستـور للحياة ، وتشريـع للأحيـاء . وبهذا قـوّض المسلمون أهم ركن من أركـان سعـادتهم .

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين مهدداً إياهم بسـوء المصير :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَمْلَى لَهُم . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْـرِ ، واللَّهُ يَعْلَمُ إِسْـرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمُ الْمَـلَائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُـوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِـكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُـوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَـرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢٥ ـ ٢٨) .

فهؤلاء المنـافقون ﴿ ارْتَـدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أي رجعـوا إلى ما كـانـوا عليه من الكفر بعد أن أعلنوا إسلامهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ من بعد ما ظهر لهم الحق بالدلائل الظاهرة ، والمعجـزات الباهـرة ، إن هؤلاء المنـافـقيـن ﴿ الشَّيْـطَانُ سَـوَّلَ لَهُـمْ ﴾ أي زيّـن لـهـم وسهـل لـهـم العصيـان ﴿ وأملى لهم ﴾ أي مـدّ لهم في الأمـاني والآمـال الكـاذبـة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـالوا لِلَّذينَ كَـرِهُوا مَـا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ أي وارتـدادهم هذا بسبب أنهم قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن على محمد حسداً من عند أنفسهم ﴿ سَنُـطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْـرِ ﴾ أي سنـطيعـكم فـي بعض أمـوركـم وأحـوالكم ، وليـس في كـل الأمـور ، إذ يجب أن يحـافـظوا على الشكـل

الظاهري لهم باعتبارهم مسلمين ظاهراً ﴿ واللَّهُ يَعلَمُ إسْرَارَهُم ﴾ أي يعلم كل ما يسرونه ويخفونه عن المسلمين . ﴿ فَكَيْفَ إذا تَوَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ ﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء المنافقين عندما يتوفاهم ملك الموت وأعوانه ﴿ يَضْرِبُون وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ فالملائكة عندئذٍ تضرب وجوههم وأقفيتهم إذلالاً لهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّه ﴾ أي ذلك الهوان والذل الذي سيلاقونه هو بسبب كفرهم ومعاصيهم التي تغضب اللّه ، وبسبب أنهم ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ ولأنهم كرهوا ما يرضاه اللّه لهم من الإيمان والطاعة ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فلأجل ذلك أبطل اللّه ثواب أعمالهم وأذهبها سدى لأنها عُملت في غير رضاه فبطلت ولم تنفع صاحبها .

وتتابع الآيات مهددة المنافقين بفضحهم وكشفهم على حقيقتهم أمام المؤمنين :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُم . وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُم فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون ، والضغن : الحقد الشديد . والمعنى : هل ظن المنافقون أن اللّه لن يظهر ما يضمرون في قلوبهم من حقد للنبي وللمؤمنين ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لو شاء اللّه لعرّفك بهم يا محمد وأعلمك بحالهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُم ﴾ فلعرفتهم بعلاماتهم التي يتميزون بها ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ ﴾ أي في نبرات الصوت ، وفي فحوى القول ومقصده ومعناه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ لا يخفى عليه شيء منها .

ثم تعود بنا السورة إلى الكلام عن الجهاد في سبيل اللّه وأن اللّه

فرضه على المؤمنين ليمتحن جوهر عقيدتهم ، وأن الكافرين مهما تـآمروا للقضاء على الإسلام فلن يستطيعوا النيل منه ، يقول تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المجاهِدينَ مِنْكم والصَّابِرينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم . إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

يخبر اللَّه المسلمين بأنه سيختبرهم بأنواع من المحن والتكاليف الشاقّة كالجهاد ليعلم المجاهدين منهم والصابرين ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أي نختبر أعمالكم فنعرف الصادق منكم من الكاذب .

أما الذين كفروا بوجود اللَّه أو أنكروا وحدانيته ونبوة رسوله محمد ﴿ وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي منعوا الناس عن دين اللَّه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة أخرى ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُول ﴾ أي عادوه وحاربوه وآذوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي من بعد أن علموا أنه مرسل من عند اللَّه بالدلائل الواضحة ، هؤلاء ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شيئاً ﴾ هؤلاء لن يضروا دين اللَّه ولا منهجه ، ولا القائمين على دعوته ، وأنهم وإن قدروا على إيذاء بعض المسلمين فإن هذا بلاءٌ مؤقت يقع بإذن اللَّه لحكمة يريدها ، ولكن اللَّه في النهاية ﴿ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي سيبطل كل مكايدهم ومؤامراتهم ضد الإسلام .

وها نحن اليوم بعد أربعة عشر قرناً من بدء الدعوة الإسلامية نرى مصداق هذه الآية في أجلى مظاهرها ، فقد نشأ الإسلام ضعيفاً وتآمر عليه المتآمرون واستشهد الكثير في سبيله ، ولكنه خرج من كل ذلك ظافراً .
وبعد وفاة النبي ﷺ امتد الإسلام وانتشرت دعوته في مشارق الأرض ومغاربها بدعوته السمحة ، وكان في كل فترة يصاب بانتكاسات على يد

أعدائه ، ولكن لم يستطيعوا طمس نوره بل ظل ينتشر بسرعة حتى أصبح أتباعه مئات الملايين ، وأصبح الإسلام اليوم من أعظم القوى التي توجه العالم ، وما ذلك إلاّ لأنه دين الله الحق الذي يراعي في تنظيمه كل المتطلبات المادية والروحية التي تنشدها شعوب العالم .

وبعد هذا التطمين الرباني للمؤمنين بإبطال كيد أعدائهم تأتي الآيات التالية ترشد المؤمنين إلى ما فيه سعادتهم وفوزهم برضاء الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُم كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فالله سبحانه يدعو المؤمنين إلى طاعته وطاعة رسوله لأن فيهما قوام سعادتهم ، وأن لا يبطلوا أعمالهم الصالحة بالأعمال السيئة والكفر . فالكفار الذين أنكروا وجود الله ووحدانيته ، وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله بأية وسيلة كانت ، أو فتنوهم عن دينهم ثم ماتوا وهم كفار ، هؤلاء لن يغفر الله لهم ما فعلوا ، وسيكون العذاب نصيبهم يوم القيامة . فالفرصة متاحة لكل كافر أن يتوب عن كفره ، ويرجع عن عمله السيء ما دام على قيد الحياة ، ولكن إذا جاءه الموت تذهب كل فرصة سدى .

ثم يخاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلى السَّلْمِ ﴾ أي فلا تضعفوا ولا تذلّوا لأعدائكم الذين قابلوكم بالظلم والعدوان ، ولا تدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوفاً منهم وضعفاً ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ وأنتم القاهرون والعالون عليهم ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ والله ناصركم على أعدائكم . وكلمة : الله معكم تعطي المؤمنين دعماً معنوياً هائلاً يشعر

المؤمن معها أن لا قوة في الأرض تقف أمامه ، ومن كان اللّه معه لن تغلبه قوة مهما عظمت ، كما أنها إرشاد للمؤمنين بتجنب الزهو والإعجاب بالنفس ، لأن اللّه لما قال : وأنتم الأعلون كان ذلك داعياً للافتخار فبيَّن اللّه أن ذلك العلو على الكفار بسبب معية اللّه لهم ونصرته لهم ، ثم يعقب اللّه على ذلك بقوله ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي ولن ينقصكم أجور أعمالكم .

ثم يختم اللّه السورة داعياً المؤمنين إلى الإنفاق في سبيله لأن ذلك سبيل الفلاح لهم :

﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ . هَا أَنْتُمْ هؤلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ واللّهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ ، وَإِن تَتولَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٦ ـ ٣٨) .

فاللّه يبين بأن الدنيا لعب ولهو فلا يجدر المؤمنين أن تلهيهم الدنيا عن واجبات الإيمان ، وبقدر ما يقدم المؤمن من تضحيات ، يرتفع قدره عند اللّه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ فاللّه يجزي ثواب الإيمان والتقوى فلا يظن الإنسان أن تضحياته ستذهب سدى . ومعنى ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُم ﴾ أي لا يطلب منكم إخراج أموالكم كلها في سبيل اللّه ، بل يطلب منكم إنفاق بعضها[1] ﴿ إن يَسْأَلْكُمُوهَا ﴾ أي إن يسألكم ربكم إنفاق أموالكم كلها ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل ، وعندئذٍ ﴿ تَبْخَلوا ﴾ بالمال فلا تنفقوه في سبيل اللّه ﴿ وَيُخْرِجْ

(١) هي ربع العُشر (اثنان ونصف بالمئة) من أموالكم وهي مقدار فريضة الزكاة .

اضْغَانَكُمْ ﴾ أي ويظهر أحقادكم لهذا الدِّين .

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبيلِ اللَّهِ ﴾ فالمؤمنون مدعوون إلى الإنفاق في سبيل الله ، وسبيل الله كلمة لكل ما رسم الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه ، والبذل في سبيله ، وعمل الخير .

فنشر دعوة الإسلام والإنفاق على ذلك هو في سبيل الله ، ودفع الأعداء عن أرضنا هو في سبيل الله ، وإقامة العدل في الأحكام ورد الأمانات إلى أهلها هو في سبيل الله ، والعمل على مصالح الأمة بإنشاء دور العلم والمستشفيات ودور الصناعة التي تتوقف عليها حياة الأمة ورقيها هو في سبيل الله .

ومن الجدير بالتأمل أن القرآن أثبت أن البخل في الإنفاق في سبيل الله يعود وباله على البخيل ذاته ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فالبخل في الإنفاق في سبيل الله يؤدي إلى خلل في المجتمع الذي يُعتبر البخيل جزءاً منه . هذا بالإضافة إلى أن البخيل حرم نفسه من ثواب الله ، فالقرآن إذ دعا المؤمنين إلى الإنفاق في سبيل الله فما ذلك إلاّ لخيرهم ، وهو سبحانه ليس بحاجة إلى أحد فهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ ﴾ .

هذا وإن البخل في الإنفاق في سبيل الله مدخل إلى ضعف الأمة وانهيارها وطمع الأعداء فيها وهلاكها ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ فالله سبحانه يهلك هؤلاء البخلاء ويستبدل بهم قوماً أصلح منهم وأطوع وأكثر استجابة للعمل بشريعته ثم لا يكون هؤلاء البدلاء أمثالهم في البخل بل يستجيبون إلى ما أمرهم الله به من النفقة في سبيل الله ، الذي هو سبيل الحق والخير .

سورة الفتح

هذه السورة تدور في مجملها على صلح الحديبية ، وما رافق ذلك من أحداثٍ قبل هذا الصلح وبعده ، ولذا كان ضرورياً ان نذكر قصة هذا الصلح وظروفه ، لنعيش في جوّ هذه السورة التي قدمت دروساً في الجهاد ، وثمراته المرجوّة من السعادة في الدنيا ، والنعيم في الآخرة .

صلح الحديبية

زيارة المسجد الحرام : كان المسجد الحرام في مكة وجهة العرب قبل الإسلام في عبادتهم ، يحجّون إليه كل عام في الأشهر الحرم[١] ، وكان له تعظيم خاص في نفوسهم ، وأن من دخله كان آمناً ، وإذا التقى المرء بأشد الناس عداوة له لم يجرؤ أن يجرّد نحوه سيفاً ، أو يسفك له دماً ، ولكن قبيلة قريش آلت على نفسها منذ أن هاجر محمد ﷺ والمسلمون معه إلى المدينة المنوَّرة أن يصدوهم عن المسجد الحرام ، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب، وكان المسلمون يتألمون كثيراً من هذا الحرمان الذي حال بينهم وبين أداء هذا الواجب الديني .

انقضت ست سنوات على هجرة المسلمين إلى المدينة ، وهم يتحرَّقون شوقاً لزيارة المسجد الحرام ، وإنهم لمجتمعون ذات يوم إذ أقبل عليهم رسول الله ﷺ ينبئهم برؤيا رآها في منامه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين مطمئنين لا يخافون ، وما لبث أن دعا رسول الله ﷺ أهل المدينة المنوّرة ومن حولها من أهل البوادي (الأعراب) ليخرجوا معه إلى

---

(١) الأشهر الحرم : هي الأشهر التي كان العرب في الجاهلية يحرمون فيها القتال وقد أقر الإسلام حرمتها ، وهي : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرّم ، ورجب .

المسجد الحرام لأداء فريضة[١] العمرة ، وكان النبي ﷺ يخشى أن يتعرض له الكفار من أهل مكة بالحرب ، أو يصدّوه بالقوة عن دخول المسجد الحرام .

استجاب أهل المدينة لرسول الله ، أما الأعراب فامتنعوا عن الذهاب معه ، وقالوا : (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وكان السبب الحقيقي في إحجامهم عن المسير مع النبي ﷺ اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لن يعودوا من سفرهم هذا أبداً سالمين لأن المشركين سيفتكون بهم .

خرج رسول الله ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وكان عددهم ألفاً وأربعمائة ، لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها ، يسوقون الهدي[٢] أمامهم لِتَعْلَم قريش أن محمداً وصحبه خرجوا للعبادة لا للحرب .

منع رسول الله من دخول مكة : وصل رسول الله وصحبه إلى مكان يُدعى (عسفان)[٣] فجاءه الخبر أن قريشاً أجمعت على صدّه ومن معه من المسلمين عن دخول مكة ، وأنّها استعدت للحرب ، ولما بلغ رسول الله الخبر باستعداد قريش للحرب قال : (يا ويح قريش قد أكلتهم

---

(١) بعض الأئمة يراها سنة لا فريضة ، والعمرة لها ثلاثة أركان : الإحرام ، والطواف حول الكعبة ، والسعي بين الصفا والمروة .

(٢) الهدي هي ما يهدى إلى البيت الحرام من الإبل والبقر والغنم ، وقد كان رسول الله في هذه الزيارة يسوق أمامه سبعين بدنة (وهي الناقة المسمنة) وهي تنحر بعد الزيارة ويوهب لحمها للفقراء .

(٣) عسفان : موضع على بُعد مرحلتين من مكة . المرحلة : هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه .

الحرب ، ماذا لو خلّوا بيني وبين سائر الناس ! فإن أصابوني[١] كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني[٢] الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين[٣] ، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة[٤] (مشيراً إلى صفحة عنقه) . ثم قال رسول الله ؛ من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فسار بالركب في طريقٍ وعرٍ قاس . . عانى المسلمون منه مشقة شديدة ، ثم وصلوا إلى مهبط الحديبية في أسفل مكة .

وبينما الركب في طريقه إلى مكة بركت ناقة رسول الله ، فقال الناس : خلأت[٥] ناقة رسول الله ، فقال رسول الله ؛ « ما خلأت ، وما هو لها بِخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها » ثم زجر ناقته مغيّراً وجهة سيره ، فوثبت الناقة ، وسار النبي ﷺ حتى نزل بأقصى الحديبية .

أرسلت قريش بعض السفراء سفيراً تلو الآخر يسألون عن سبب قدوم المسلمين إلى مكة ، وقد راودهم الشك فيما عزم عليه رسول الله ، فأخبرهم بأنه جاء لزيارة المسجد الحرام لأداء العمرة ، ثم رأى رسول الله أن يُرسل عثمان بن عفان سفيراً من قِبَله لإبلاغ قريش الغاية من مجيئه ، فبلّغ عثمان رسالته إلى قريش ، فقالوا لعثمان حين فرغ من مهمته : إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول

---

(١) أصابوني : قتلوني أو هزموني .
(٢) أظهرني : نصرني .
(٣) وافرين : سالمين لم يقتل منهم أحد .
(٤) السالفة : هي صفحة العنق وانفرادها عن الجسم كناية عن الموت .
(٥) حرنت وبركت .

الله ، ثم حبسوه عندهم ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قُتل ، فلما بلغ رسول الله خبر مقتله قال : لا نترك هذا المكان حتى نحارب هؤلاء القوم .

بيعة الرضوان : هنالك رأى النبي ﷺ أن الأمر خرج عن طوق الصفح والحلم ، ودعا أصحابه لمبايعته ، فعاهدوه باستثناء واحد منهم ، وقد سُئل أحد الذين شهدوا تلك البيْعة : (على أي شيء بايعتم « أي عاهدتم » رسول الله يوم الحديبية ، قال : الموت) وفي رواية أخرى : (أنهم بايعوا رسول الله على أن لا يفروا) والمراد بذلك : القتال حتى النصر ، مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، لا يفرون من وجه عدوهم مهما لاقوا منهم من شدة .

معاهدة الصلح : استعد المسلمون للقتال ، وبينهما هم كذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يُقتل ، ثم لم يلبثوا أن فوجئوا برجوعه . وبذلك عادت المفاوضات بين الفريقين ، فأرسلت قريش سفيراً من قبلها هو سهيل بن عمرو يعرض شروط الصلح التي تطلبها قريش وكانت أربعة :

أولاً : تقرير هدنة بين قريش والمسلمين مدتها عشر سنين .

ثانياً : إذا لجأ رجل من قريش إلى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فرّ واحد من المسلمين إلى قريش فليس عليها ردّه .

ثالثاً : أن يعود المسلمون هذا العام بغير عُمرة ، ويأتوا في العام الذي يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها .

رابعاً : من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ،

ومن طلب أن يدخل في عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فَقَبِلَ النبي ﷺ هذه الشروط ، ثم استدعى النبي علي بن أبي طالب فقال : اكتب « بسم الله الرحمٰن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

نزل بالمسلمين من أمر هذا الصلح شيء عظيم ، فهم يرون أنهم وهم على ما هم عليه من كثرة العدد ، وقوة الإيمان يقدمون لقريش هذه التنازلات ، وهم كانوا يؤمنون بأنهم سيدخلون مكة كما رأى رسول الله في منامه ، فإذا هم يُردّون عنها وعن زيارة المسجد الحرام ، ولهذا يقول عمر بن الخطاب للنبي آنذاك : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال النبي : بلى ، قال عمر : ففيم نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال النبي : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً .

ثم اطمأن المسلمون بعد ذلك إلى أمر الله ، ورجعوا مع نبيهم ﷺ إلى المدينة يحدوهم الإيمان واليقين بنصرة الله لهم .

وعند رجوعهم وفي الطريق بين مكة والمدينة وقف رسول الله في موضع يُدعى (كراع الغميم) وجمع الناس ليقرأ عليهم سورة الفتح .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ
نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

شرح المفردات

إِنَّا فَتَحْنَا : فتح البلد هو الظفر به بحرب أو بغير حرب .
فَتْحاً مُبِيناً : فتحاً ظاهراً واضحاً ، والمقصود هو صلح الحديبية .
مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ : ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه قبل النبوة وبعدها .
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ : يتم فضله عليك بنشر الإسلام وفتح البلدان .
نَصْراً عَزِيزاً : نصراً فيه عز ومنعة .
أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المؤمِنينَ : أدخل الثبات والطمأنينة إلى قلوبهم .
يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم : يمحو الله سيئاتهم ولا يعاقبهم عليها .

وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

شـرح المفـردات

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ : أي أن الهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين سيقع بهم .

وَلَعَنَهُم : طردهم من رحمته .

وَسَاءَتْ مَصِيراً : وبئست جهنم نهاية سيئة لهؤلاء المشركين .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً : أي أرسل الله محمداً شاهداً على أمته بتبليغ الرسالة .

مُبَشِّراً : مخبراً المؤمنين بما يسرّهم من نعيم الآخرة .

نَذِيراً : محذراً ومخوفاً العصاة من عذاب الله .

تُعَزِّرُوهُ : تنصروا الله تعالى وذلك بنصرة دينه .

وَتُوَقِّرُوهُ : وتعظموه بتعظيم دينه .

بُكْرَةً وَأَصِيلًا : صباحاً ومساءً ، والمراد كل الأوقات .

يُبايِعُونَكَ : يُعاهدونك .

يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم : نصر الله وتأييده لهم أقوى من نصرتهم إياه .

فَمَن نَكَثَ : فمن نقض العهد بعد إبرامه .

سُورَةُ الفَتْح

ايضاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بوصف صلح الحديبية بأنه فتح واضح ظاهر :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَزِيزاً ﴾(١ ـ ٣) .

قال عمر بن الخطاب : أَوَ فتح هو يا رسول الله ، قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنَّه لفتح » .

قد يعجب القارىء من وصف القرآن صلح الحديبية بالفتح المبين ، وقد اعتبره قبل ذلك أكثر المسلمين ضعفاً واستسلاماً ، ولكنهم رأوا فيما بعد ثمرة هذا الصلح ، وتبين لهم أنه كان خيراً على المسلمين من أي فتح سبقه ، إذ كان لا بد من وجود هدنة يُلقى فيها السلاح جانباً بعض الوقت ، لتتمكن العقول من التفكير الهادىء في أصول هذا الدِّين الجديد ، فتأخذ به عن اقتناع لا عن رهبة .

ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا منهم القرآن وتناقشوا في أمر هذا الدين ، فدخل في الإسلام في تلك السنتين ـ منذ إبرام الصلح إلى فتح مكة ـ كثير من الناس مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويؤيد ذلك أن رسول الله خرج إلى الحديبية ومعه ألف وأربعمائة من أتباعه ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف .

إن وصف القرآن لهذا الصلح بأنه فتح مبين ، ثم تأتي الأيام مصدِّقة لذلك بانتصار المسلمين في فتح مكة العظيم ، إن ذلك لمن أقوى الأدلة على أن القرآن وحي إلَهي .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ الفتح : هو النصر ، والمعنى : حكمنا لك بالنصر يا محمد على أعدائك نصراً ﴿ مُبِيناً ﴾ أي واضحاً ظاهراً لا مجال لإنكاره ، والمراد بهذا الفتح « صلح الحديبية » وسُمي فتحاً لأنه كان سبباً في فتح مكة ، كما أنه كان فتحاً للقلوب لتقبُّل الإسلام ، وأثاب اللّه نبيه على هذا الفتح بالغفران :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر ﴾[1] ما تقدَّم من ذنبك ، أي قبل تلقيك الرسالة الإلَهية ، وما تأخَّر : أي بعد الرسالة .

وليس الذنب الذي غفره اللّه لنبيه كذنوب الناس ، لأن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، بل هو ما قد يفرط من مقام النبوة مما يحتاج إلى التذكرة والعتاب ، وللنبوة تكاليف لا يطيقها الناس ، ولا يُلزمون بها ، وقد يتصرف النبي بشيء لو تصرف به غيره من الأبرار لكان مقبولاً لا حرج فيه ولكنه من النبي قد يُعتبر مأخذاً يُذكّر به ويعاتب عليه ، كما في عتاب اللّه له في حادثة عبوسه مع الأعمى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ ومن النِّعَم التي أتمها اللّه على محمَّد ﷺ : نشر دينه ، وإعلاء شأنه ، وفتح خيبر ومكة والطائف ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً

---

(١) هذه الآية كان رسول اللّه ﷺ يقول فيها : « لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض » هذا وبالرغم من غفران اللّه لذنوب نبيه فقد روي عن عائشة : أن النبي كان يقوم من الليل في العبادة حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تَصنع هذا يا رسول اللّه وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً .

مُسْتَقِيماً ﴾ أي يرشدك طريقاً من الدِّين لا اعوجاج فيه ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي ينصرك اللّه على سائر أعدائك نصراً لا يغلبه غالب .

وبعد أن بيّن اللّه بأن صلح الحديبية هو الفتح المبين ، شرع سبحانه يذكّر المؤمنين بما أفاض عليهم وقتئذٍ من نِعَمه حيث ملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة بعد الفزع من جرَّاء هذا الصلح وما ظنوا فيه من إجحاف بهم :

﴿ هُوَ الذي أنْزَلَ السَّكِينَة في قُلُوبِ المؤمِنينَ لِيَزدَادُوا إيماناً مَعَ إيمانهم ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حكيماً ﴾ (٤) .

بيّن اللّه في هذه الآية بأنه سبحانه ثبَّتَ قلوب المؤمنين ، وألقى فيها الطمأنينة بعد أن تعرَّضوا لامتحانٍ قاسٍ من شأنه أن يزيغ القلوب ، وذلك من صدّ الكفار لهم عن دخول المسجد الحرام ، ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم .

﴿ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إيمَانِهِم ﴾ فالمؤمنون الأوائل رأوا من التأييد الربّاني المستمرّ لهم ما زادهم إيماناً على إيمان ، ونحن اليوم في عصرنا الحاضر نستشعر زيادة الإيمان في قلوبنا كلما تمعنًا وازددنا دراسة للقرآن فنرى ما فيه من تشريع عادل ، وأخلاق رفيعة ، وعبادات سامية ، وأنباء غيبية تحققت ، وإشارات إلى حقائق علمية اكتشفها العلم حديثاً ، بالإضافة إلى بلاغة القرآن وفصاحته التي عجز عن مجاراتها كل بلغاء الأرض .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ فكل ما في السماوات والأرض من ملائكة وجن وإنس في قبضته سبحانه يُصرِّفها

بعلمه ويدبِّرها بحكمته ، وفي هذا تطمين لقلوب المؤمنين ، وأنه لو حصل قتال في الحديبية لم يكن النصر بعيداً عنهم لأن قدرة اللّه ليس لها حدود .

ثم يبيّن اللّه ما أعدَّ للمؤمنين من نعيم في الآخرة :

﴿ لِيُدْخِلَ المؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٥) .

فاللّه يخبر بأنه أعدّ للمؤمنين والمؤمنات في الآخرة بساتين تجري من خلالها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، لا يخضعون لزمان لأنه يتوقف عندهم الزمان ، ولهم بجانب ذلك مغفرة من ربهم ، وهي تُعتبر ﴿ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ أي نجاةً لهم من كل غمّ ، وظفراً بكل مطلوب .

وتأمل كيف خصّ القرآن النساء المؤمنات بالنعيم مع الرجال لدفع ما يراود الذهن بأن الجزاء الموعود في الآخرة خاص بالرجال ، ولحثّ المرأة على الإيمان ومشاركة الرجل في الجهاد بأي نوع من أنواع المشاركة مما ينسجم مع طبيعتها واستعدادها .

وبالمقابلة يبيّن اللّه ما أعد للمشركين والمنافقين من عذاب :

﴿ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَت مَصِيراً . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٦ ـ ٧) .

فالمنافقون والمنافقات هم الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، والمشركون والمشركات هم الذين جعلوا مع اللّه شريكاً في العبادة ، سواء أكان صنماً ، أو إنساناً ، أو مظهراً من المظاهر الطبيعية ، هؤلاء رفضوا

الانضمام إلى جماعة المسلمين وظلوا يناوئونهم . والله سبحانه يخبر بأنه سيعذبهم جزاء عملهم في الدنيا والآخرة .

﴿ الظَّانِّينَ باللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي كانوا يظنون أن الله لن ينصر رسوله والمؤمنين ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَة السَّوْءِ ﴾ عليهم يعود ما ينتظرونه من البلاء للنبي وصحبه ، والدائرة ما أحاط الشيء ، أي أن السَّوْء سيحيط بهم إحاطة الدائرة بمن فيها . ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ والغضب هو السخط على الشخص بالإعراض عنه ، وصب العقوبة عليه ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ واللعن هو الطرد من رحمة الله . هاتان الصفتان : الغضب واللعنة من الله عليهم فيهما من التهديد والوعيد لهؤلاء المنافقين والمشركين ما يردعهم عمّا هم عليه من الشرك والنفاق .

ثم كرَّر القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ . في معرض غير المعرض السابق ، فالأول كان المجال فيه مجال تصريف وتدبير ولذلك قرنه بالعلم والحكمة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أما هنا فهو مجال قهر وغلبة فناسب أن يقرنه بالعزَّة والحكمة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

ثم يبيِّن اللَّهُ وَظيفة النبي ﷺ وواجبات المؤمنين :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّه وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوه وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾(٨ ـ ٩) .

فالله سبحانه أرسل رسوله محمداً ليكون شاهداً على أمته بتبليغ رسالة ربه إليهم ، وشاهداً على أعمالهم من طاعة أو معصية ، كما أنه سبحانه أرسله ليكون ﴿ مُبَشِّراً ﴾ لمن أطاع منهم بالنصر في الدنيا والنعيم في

الآخرة . كما أرسله سبحانه ﴿ نَذِيراً ﴾ أي مخوفاً ومحذّراً من عصى منهم بعذاب اللّه .

وكانت الغاية من إرسال النبي ﷺ إلى الناس : ﴿لِتُؤمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لتصدّقوا أيها الناس بوجود اللّه ووحدانيته ، ونبوة رسوله محمد ﷺ ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تنصروا اللّه ، ونصرته سبحانه تكون بنصرة دين الإسلام ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ وتسبيح اللّه تنزيهه عن كل نقص ، وقيل : لتقوموا بالصلاة ، لأن الصلاة تحتوي على تسبيح اللّه ﴿ بُكْرةً ﴾ أي غداة ، وهي أول النهار ﴿ وَأَصِيلاً ﴾ أي عشية . والمراد بذلك جميع النهار ، إذ من عادة العرب أن يذكروا طرفي الشيء ويريدوا جميعه ، والهدف من ذلك هو اتصال القلب باللّه في كل آن على الدوام .

ثم انتقل القرآن إلى الثناء على المؤمنين الذين عاهدوا محمداً ﷺ على نصرة الإسلام حتى الموت :

﴿ إنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنَّما يُبايعونَ اللّه ، يَدُ اللّهِ فَوقَ أيديهم ، فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجراً عَظِيماً ﴾(١٠) .

يبايعونك : يعاهدونك ، والمبايعة المقصودة هنا هي بيْعة الرضوان ، وقد أشرنا إليها من قبل في المقدمة ، وهي التي بايع فيها المسلمون النبي ﷺ لنصرة الإسلام حتى الموت . فاللّه سبحانه يقول : إن الذين يعاهدون النبي إنما يعاهدون اللّه ، لأن النبيّ هو المبلغ والمنفّذ لأوامر ربه ، فعندما كان المسلمون يضعون أيديهم بيد النبي ﷺ رمزاً للوفاء بالعهد أخبرهم اللّه بأن ﴿ يَدُ اللّه فَوْقَ أَيْدِيهِم ﴾ ولما كان اللّه منزهاً عن أن تكون له يد فقيل إن معنى ذلك : يده في الثواب فوق أيديهم بالوفاء ،

وقيل : قوّة اللّه ونصرته لهم فوق نصرتهم لله .

﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي من نقض العهد مع النبي ﷺ فإنما يرجع وبال نقضه على نفسه لأنه بذلك حرم نفسه صفقة رابحة عقدها مع اللّه وتخلى عنها معرّضاً نفسه للخسارة في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ أي ومن وفى بعهده الذي عاهد عليه النبي فسيجزيه اللّه على هذا الصنيع الأجر العظيم ، وهو نعيم الجنة في الآخرة .

هذه المبايعة وإن كانت مع رسول اللّه إلاّ أنها ممتدة على مر العصور ، ففي كل محنة تمر بالعالم الإسلامي يجب على المسلمين أن يبايعوا أولي الأمر منهم على نصرة الإسلام والدفاع عن الديار ، وليعلموا أنهم بهذه المبايعة ستكون يد اللّه فوق أيديهم ، تباركهم وتضفي عليهم الرحمة والرضوان ، وتشملهم بالرعاية والاطمئنان ، وأي شرف أعظم من هذا ، وأية قوة معنوية يستشعرونها من تلك المبايعة ، إنها حقاً قوة قاهرة غالبة ، تهون أمامها كل التضحيات ، وتكون من الحوافز الهامة للنصر .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا
وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ
قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ
بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ

شرح المفردات

المُخَلَّفُونَ : هم الذين تخلّفوا عن صحبة النبي في المسير إلى الحديبية .

الأَعْرَاب : سكان البادية المتنقلون إرتياداً للماء والمرعى .

لَنْ يَنْقَلِبَ : لن يرجع .

بُوراً : هالكين أو فاسدين .

سَعِيراً : هي جهنم سُميت بذلك لتأجج نيرانها .

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم : دعونا نلحق بكم .

كَلَامَ اللّٰه : المراد به تخصيص غنائم خيبر لأهل الحديبية .

لا يَفْقَهُونَ : لا يفهمون .

ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

شرح المفردات

أولي بأسٍ : أصحاب شدة وقوة في الحرب .

تتولَّوْا : تُعرضوا عن الجهاد .

حَرَجٌ : إثم وضيق .

أثابهم : جزاهم خيراً .

فتحاً قريباً : المراد به فتح خيبر .

تَابع سُورَة الفَتْح

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى الكلام عن الذين تخلَّفوا عن المسير مع رسول اللَّه إلى مكة لإداء العمرة والتي تحولت إلى صلح الحديبية :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ في قلوبهم ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبِيراً ﴾(١١) .

هؤلاء المخلَّفون أي الذين تخلّفوا عن السير مع رسول اللَّه هم قبائل من الأعراب كانوا ينزلون حول المدينة المنورة كقبائل جُهينة ، ومُزَينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغِفار ، والدِّيل . هؤلاء لم يكن الإيمان قد تمكّن بعْدُ من قلوبهم فأخبر اللَّه رسوله محمداً أنهم سيعتذرون إليه حين يصل إلى المدينة بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الرحيل معه لأنهم لا يجدون من يخلفهم على حراستها ورعايتها ، ثم يسألونه أن يستغفر لهم . ولكن اللَّه فضحهم ، وكشف باطن أمورهم فكذَّبهم في اعتذارهم حين قال سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ لقد كانوا في خوف من أن يُصابوا بأذى من قريش إذا قرَّرت محاربة النبي ﷺ ، ولكن اللَّه ردَّ على تلكئهم عن المسير مع النبي ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شيئاً إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أرادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ هذا سؤالٌ يُوحي بالخضوع والاستسلام لحكم اللَّه وطاعة نبيّه ، فالامتناع عن الذهاب مع النبي إلى مكة لن يدفع ضرراً عنهم إذا أراد اللَّه أن يصيبهم به ، ولو أراد بهم نفعاً فلا رادّ له ، وانتحالهم المعاذير لا تخفى على اللَّه ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبِيراً ﴾ .

ثم يكشف اللّه عن خبايا قلوب هؤلاء المخلَّفين من الأعراب وما كانوا يظنونه من سوء بالنبي وبالمؤمنين :

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ والمؤمِنونَ إلى أهْلِيهِم أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُم وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بوراً ﴾(١٢) .

فهؤلاء الأعراب اعتقدوا أن محمداً ومن معه من المؤمنين سيُقتلون على أيدي قريش ، وأنه لن يرجع أحد منهم حيًّا إلى أهله ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُمْ ﴾ أي زيَّنَ الشيطان ذلك الظن السيء في قلوبكم ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ وهذا الظن السيء هو أن اللّه لن ينصر محمداً وصحبه على أعدائهم ﴿ وَكُنْتُمْ قوماً بُوراً ﴾ أي هلكى ، وقيل فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير .

والسبب الحقيقي في تخلف هؤلاء الأعراب هو عدم تغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولهذا يُنْذِر اللّهُ هؤلاء بقوله :

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلكَافرين سَعِيراً . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَان اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾(١٣ ـ ١٤) .

فاللّه أنذر الذين لا يُصَدِّقون بوجود اللّه ونبوة رسوله محمد ﷺ بعذاب في الآخرة هو نار جهنم ، والذي ينذرهم بذلك له وحده ملك السماوات والأرض ، وهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ، كما يملك العذاب لمن يشاء من عباده ، ولكن غفرانه ورحمته أعم وأشمل ولهذا عقّب اللّه على هذا العذاب بقوله ﴿ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي غفوراً ورحيماً لمن تاب وعمل صالحاً .

ثم تـأتي الأيات التـالية وفيهـا وعـد من اللّه للمسلمين الـذين شهـدوا الحديبية بغنائم خاصة لهم وهي غنائم خيبر. وخيبر كانت أهم معقل لليهود وأوفرها مـالاً وسـلاحـاً . ولمـا تجهّـز النبي ﷺ والمسلمـون إلى خيبـر لفتحهـا ، أبدى الأعراب الـذين تخلّفوا عن المسيـر إلى الحديبيـة رغبتهم في المسير مـع النبي ﷺ للحصول على الغنـائم ، وهنا يحـدّد اللّه للمؤمنين المـوقف الذي ينبغي أن يقفوه من هؤلاء الأعراب .

﴿ سَيَقُـولُ المُخَلَّفُون إِذَا انْـطَلَقْتُم إِلَى مَغَانِمَ لِتـأخذوهـا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُـرِيدُون أَنْ يُبَـدِّلُـوا كَـلاَمَ اللَّه قُـلْ لَنْ تَتَّبِعُـونَـا كَـذَلِكُم قَـالَ اللَّهُ مِنْ قَبْـلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانوا لا يَفْقَهُون إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(١٥) .

فهــذه الآيـة تنبىء بنبــأ غيبي وهـو أن هؤلاء المخلفين من الأعــراب سيقولون للمســلمين عندما يرونهم يسيرون نحو خيبر ﴿ ذَرُونَـا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي دعونا نلحق بكم ﴿ يُرِيدُون أن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ وكلام اللّه المراد به هنـا وعـد اللّه للمسلمين الـذين شهـدوا الحـديبيـة بغنـائم خيبـر خـاصــة لهم لا يشـاركهم فيها أحـد ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُـونَا ﴾ أي قـل لهم لن تخـرجـوا معنـا ﴿ كَـذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْـلُ ﴾ أي ذلك مـا قـال اللّه من قبـل رجـوعنـا من الحـديبيـة بـأن غنـائم خيبـر لمن شهـد الحـديبيـة فقط ﴿فَسَيَقُـولُـون بَـلْ تَحْسُدُونَنا ﴾ أي سيقـولون إن اللّه لم يمنعنـا من الخروج معكم ، بـل أنتم تمنعوننا حسداً منكم وكراهية أن نشارككم الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إلاَّ قَليــلاً ﴾ أي ليس الأمـر كمــا زعمـوا ولكن لا فهم ولا إدراك عنــدهم إلاّ القليل .

لقـد تصوّر هؤلاء الأعـراب بأن الإســلام هو مجـرد غنـائم يـربحـونهـا ولكنهم نســوا تبعات الإسـلام من التضحية والجهـاد لإعلاء كلمـة اللّه ولـو

كلّفهم ذلك حياتهم ، فإذا تم النصر تكون الغنائم بعض نِعَم الله عليهم - وليست هي المقصودة من الجهاد - ثم لهم بعد ذلك الثواب الكبير في الآخرة .

درس كبير لقنهم الله إياه إذ حرمهم غنائم خيبر جزاء تقاعسهم عن نصرة نبيهم ، ولكن الله لم يدعهم في مجال الحرمان أبداً ، بل ترك لهم الباب مفتوحاً ليلجوا منه إلى مغفرة الله ورضوانه ، وأنه إذا دعا داعي الجهاد ثانية فليلبوا النداء عن طواعية ورغبة ، وهذا ما نطالعه في الآية التالية :

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أولي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلونَهُم أو يُسْلِمُون فإن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وإن تَتَوَلَّوا كما تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً﴾(١٦) .

فالله سبحانه يأمر النبي ﷺ بأن يقول لهؤلاء الأعراب بأن باب الجهاد لا يزال مفتوحاً أمامهم ، فليستعدوا لنداء الواجب ، فإنهم سَيُدْعَون إلى مواجهة قوم ﴿ أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي أصحاب قوة وشدة في الحرب ، قيل هم : قبائل هوازن وثقيف وغطفان ، وقيل هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب (مُسيلمة الكذاب) ﴿ تُقَاتِلُونَهُم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي تخيّرونهم بين أمرين : الإسلام أو الحرب ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ أي فإن تستجيبوا للجهاد يؤتكم ربكم الأجر الحسن وهو الغنيمة والنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿ وَإِنْ تَتَولَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وإن تُعرضوا عن الجهاد كما أعرضتم من قبل عن المسير مع النبي إلى الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ﴾ أي عذاباً بالغ الألم وهو عقاب النار يوم القيامة .

ويلاحظ أن هذه الآية تضع هؤلاء المتخلفين أمام حقيقة نفوسهم

ونياتهم الخفية وتوجههم في الوقت نفسه إلى السلوك القويم محذّرة لهم من عواقب التخلف عن الجهاد الذي لا يُعفى منه إلّا أصحاب العاهات كما تنطق بذلك الآية التالية :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار وَمَنْ يَتولَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً ﴾ (١٧) .

هنا يظهر يُسر الإسلام ، فاللَّه سبحانه لا يكلفُ الناس من الواجبات فوق ما يطيقون ، وفي القرآن أيضاً قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا ﴾ البقرة : ٢٨٦ ، ومن هنا نرى أن القرآن يُعفي ذوي العاهات والمرضى من واجبات الجهاد ، وأنه لا إثم عليهم في تخلّفهم ، أما من عداهم من الأصحاء فمن يُطيع اللَّه ورسوله ويبادر إلى الجهاد مدفوعاً إليه بإيمانه القوي فإن اللَّه يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ وَمَنْ يَتَولّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أليماً ﴾ ومن يُعرض عن طاعة اللَّه ورسوله فسيعذبه سبحانه عذاباً بالغ الألم .

ثم يعود بنا القرآن إلى الثناء على هؤلاء المؤمنين الذين عاهدوا رسول اللَّه في الحديبية على الجهاد لنصرة دين اللَّه وعلى الثبات معه حتى الموت :

﴿ لَقَد رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتحاً قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيرةً يأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حكيماً ﴾ (١٨ ـ ١٩) .

فاللَّه سبحانه يشير بهذه الآية إلى بيعة الرضوان حيث بايع المؤمنون

نبيهم محمـداً في ظل شجـرة من شجـر السُمُر ، بـايعـوه على الثبـات في الجهاد وعدم الفـرار من وجه العـدو ولو أدى ذلـك إلى استشهادهم ، هـذه المبايعة ذكرتها السورة من قبل ، وهنا يُظهـر اللّه رضاه عن المؤمنين الـذين عاهدوا نبيهم لما عَلِمَ من صِـدْق إيمانهم وإخلاصهم .

حقاً إنه لشيء عظيم جداً أكبر من أن يحيط به الوصف ، موقف هؤلاء الصحابة الكرام وهم يسمعون آيات اللّه تتنزّل في حقهم ، وأنه سبحانه قد رضي عنهم ، فيحـدد ذواتهم ، ويعين المكـان الـذي تمت فيـه بيْعتهم للّه ولرسوله وأنه تحت الشجرة ، يا لغمرة السعادة تنسكب على قلوبهم من هذا الـرضى الإلَهي ، وحسـب هؤلاء فخراً قـول رسـول اللّه في حقهم : (أنتم خيـر أهـل الأرض)[1] وقـولـه : (لا يـدخـل النـار ممن بـايـع تحت الشجرة)[2] .

وقد كان هؤلاء المؤمنـون في حبٍّ عارم للّه ورسـوله ، كمـا كانـوا في رغبة جامحة لملاقاة العدو والشوق إلى فتح مكـة ، فعلم اللّه ما في قلوبهم من الإخلاص ، فأنزل عليهم الطمأنينة ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي أعطاهم فتحاً قريباً هو فتح مدينة خيبر حيث يأخذون منها مغانم كثيرة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن
تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ

شرح المفردات

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ : فعجّل لكم مغانم خيبر .

كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُم : كفّ الله أذى المشركين واليهود عنكم .

وَلِتَكُونَ آيةً للمُؤْمِنِينَ : ولتكون عبرة ومعجزة يعرفون بها صدق الرسول ﷺ .

وَأُخرى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيْهَا : أي وعدكم الله فتح بلدان أخرى لم تقدروا على فتحها الآن .

قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بها : أي حفظها الله حتى تفتحوها ومنعها عن غيركم .

لَوَلَّوْا الأَدْبَار : لانهزموا أمامكم .

وَلِياً : الذي يهيء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه .

سُنَّة اللهِ : ما جرى به نظامه في خلقه .

بطْن مَكَّة : المراد بها الحديبية أو مكة .

الهَدْي : ما يهدي إلى البيت الحرام من الأنعام تذبح ويتصدق بلحومها على الفقراء .

مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

مَعْكُوفاً : محبوساً .

أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ : أن يبلغ المكان الذي يحل فيه النحر .

أنْ تَطَؤُوهُمْ : أن تُوقعوا بهم وتهلكوهم .

مَعَرَّة : إثم ومشقة أو مكروه .

لو تَزَيَّلُوا : لو تفرّق وتميّز المسلمون من الكافرين .

حَمِيَّة : الأنفة والتكبر والتعاظم .

كَلِمَةَ التَّقْوَى : هي كلمة : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله .

وكانوا أحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا : وكانوا أحق بها من الكفار والمتأهلين لها .

تابع سورة الفتح

ثم يتابع القرآن فيذكر وعد الله للمؤمنين بفتوحات وغنائم وافرة تقرُّ بها أعينهم :

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾(٢٠ ـ ٢١) .

والمغانم الكثيرة التي وعدهم الله بها هي كل مغنم سيحصل عليه المؤمنون من أموال أهل الشرك إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أي غنائم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائها من بني أسد وغطفان حيث جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ونكصوا على عقابهم﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وليكون هذا كله أمارة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾ يثبتكم على الهداية ويزيدكم هدى . ﴿ وأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ والمراد بها الفتوح التي فُتحت على المسلمين كأرض فارس والروم أو هي مكة ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي حفظها لكم ومنع غيركم من أخذها ، أو قَدِرَ الله عليها وفاتحها لكم ، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه فهو محاصر لا يستطيع الإنفلات ، ولما كانت هذه النعمة توحي في دلالتها على تفرّد الله بالقدرة فقد خُتمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديراً ﴾ .

في هذا المقام تظهر معجزة للقرآن حيث وعد الله المسلمين بفتوحات

لا يقدرون عليها حاضراً أي وقت نزول الآية ولكنها ستحصل مستقبلاً ، ثم تتوالى الأيام فتسقط مكة بأيدي المسلمين ، كما تسقط في أيديهم دولتان من أعظم الدول في ذلك العصر وهما دولتا فارس والروم .

ثم تتابع الآيات معلنةً تأييد اللّه للمؤمنين وحفظهم من كل سوء :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

فاللّه يخاطب المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سواء أكانوا أهل مكة أم حلفاء خيبر ﴿ لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ لانهزموا من أمامكم ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ﴾ أي لا يجدون صديقاً محبًّا ، ولا نصيراً يمد لهم يد المعونة والنصرة ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا حكم اللّه في خليقته بأن سنَّ الغلبة لأنبيائه وللمؤمنين ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ ولن تجد يا محمد لسنة اللّه التي سنَّها في خلقه تغييراً بل إن ذلك دائم ثابت .

ثم يقدّم القرآن بعد ذلك مثالاً للمؤمنين على تأييد اللّه لهم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ (٢٤) .

فاللّه سبحانه يقول بأنه منع أيدي المشركين وأيدي المؤمنين عن الاقتتال ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهي الحديبية ، وسُميت بطن مكة لقربها من مكة ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي من بعد أن نصركم عليهم .

هذه الآية ترمز إلى حادثة معينة فقد رُوي أن النبي لما كان بالحديبية

باغته ثمانون رجلاً من أهل مكة وهم مدجّجون بالسلاح يريدون الفتك به والنيل من أصحابه ، فشعر بهم المسلمون وأسروهم ثم عفا عنهم رسول الله . وهذه الآية تُشعر المسلمين بأن يُسلموا أمرهم إلى الله وأنه سبحانه لن يضيّعهم ، وهو البصير بمصلحتهم وتصرفاتهم ولذا تُختتم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

ويتابع القرآن فيذكر السبب الذي من أجله مُنع المسلمون من قتال كفار مكة مع ما صدر منهم من مظاهر العداء للمسلمين ومنعهم إياهم من التعبّد في المسجد الحرام مع أن العادة عند العرب أن لا يُمنع أحد من دخوله للعبادة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾(٢٥) .

فالكفار من أهل مكة منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام لأداء العمرة والعبادة ، كما منعوا المسلمين أن يسوقوا معهم (الهَدْي) إلى مكة ، والهدي : هو ما يُهدى إلى البيت الحرام من المواشي : الإبل والبقر والغنم ، تُنحر هناك ويُتصدّق بلحومها تقرُّباً إلى الله . ومعنى قوله تعالى : ﴿ مَعْكُوفاً أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أي ظل هذا الهدي محبوساً في الحديبية ، ممنوعاً أن يُساق إلى المكان الذي يُحلّ فيه الذبح في الحرم الشريف .

﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ أي ولولا كراهة أن تصيبوا بالأذى رجالاً مؤمنين ، ونساء مؤمنات موجودين بين كفار مكة ، وكاتمين

إيمانهم لأذن اللّه لكم بدخول مكة وقتال أهلها ، ولكن اللّه لم يأذن لكم خوفاً ﴿ أنْ تَطَؤُوهُمْ ﴾ أي توقعوا بهم وتهلكوهم ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي فيصيبكم من جراء قتلهم إثم وعيب ومشقة بقتل من هم على دينكم وأنتم لا تعلمون .

﴿ لِيُدْخل اللّه في رحمته من يشاء ﴾ أي ليدخل اللّه في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها فاتحين ﴿ لَوْتَزَيَّلُوا ﴾ لو تميَّز المسلمون عن الكافرين ففارقوهم وخرجوا من ديارهم ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَروا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي لأهلكهم اللّه ببعض ما يؤلمهم من عذابه العاجل . فمن أجل هؤلاء المؤمنين المسترين بسط اللّه رحمته على أهل مكة ورحم بهم غيرهم من الكفار الذين شاء اللّه أن يهديهم بعد ذلك فيدخلوا في الإسلام ، وبذلك يتم اللّه عليهم نعمة الحياة ونعمة الإسلام .

وهكذا يكشف اللّه بلاءه عن قوم بسبب وجود فئة صالحة تعيش بينهم .

ثم يصف القرآن تكبّر الكفار وجهلهم أثناء توقيع الصلح مع رسول اللّه :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنْـزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمِنِينَ . وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانوا أحقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٢٦) .

هذه الآية تشير إلى ذلك الموقف المتعنت من جانب الكفار الذي ذكرناه سابقاً في المقدمة ، عندما اتفق النبي ﷺ مع المشركين على إبرام الصلح وشرع في تحديد نص بنوده فاعترض ممثل المشركين على عبارة

« بسم اللّه الرحمٰن الرحيم » وعبارة « محمد رسول اللّه » ، وقد وصف اللّه هذا الاعتراض بقوله : ﴿ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّة ﴾ والحمية هي الأنفة والغضب الشديد والتكبر ، والجاهلية : مشتقة من الجهل الذي هو تسلط النزوات والابتعاد عن سلطان العقل ، وقد وصف القرآن العهد الذي كان قبل الإسلام بالجاهلية لأنه مطابق للحال التي كان عليها العرب من الجهل باللّه وشرائع الدين والكبر ورفض الإذعان للحق والسير في ركاب الباطل .

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ أي ثبتهم على الرضا والتسليم لأمره فلم يجاروا الكفار في حميتهم ﴿ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ أي جعل كلمة التقوى ملازمة لهم لا تفارقهم ، وكلمة التقوى هي : « لا إله إلاّ اللّه » ، وقيل هي الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا ﴾ أي وكان المسلمون أحق بهذه الكلمة وواجباتها من المشركين ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهلين لها دون سواهم . وهذا تقدير للمؤمنين من ربهم الذي يعلم حقيقة نفوسهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

مُقَصِّرِين : أي مقصرين بعض شعوركم .

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ : يُعليه ويقويه على الأديان كلها .

يَبْتَغُون فَضْلاً مِنَ اللَّهِ : يطلبون الثواب من الله .

سِيماهُم : علامتهم .

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ : الشطء ما خرج من الزرع وتفرَّع في جوانبه .

فَآزَرَهُ : فأعانه .

فَاسْتَغْلَظَ : فصار غليظاً .

فَاسْتَوَى : فاستقام واعتدل .

سُوقِهِ : جمع ساق وهو العود والجذع .

تـابع سُورَة الفَتْح

ثم تأتي الآية التالية وفيها تأكيد للرؤيا التي رآها النبي ﷺ بأنه سيدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين مطمئنين :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (٢٧) .

أي لقد صدق الله رسوله رؤياه ـ دخول المسجد الحرام ـ ولم يكذِّبها وأن رؤياه ستتحقق ﴿ إن شاءَ اللَّهُ ﴾ أي أن الدخول واقع حتماً ولكن متى يتم ذلك ؟ فهذا متروك لمشيئة الله يحققه إذا شاء ومتى شاء .

﴿ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم ومُقَصِّرِينَ ﴾ وحلق الرأس استئصال الشعر كله ، والتقصير أخذ بعضه ، والحلق والتقصير لا يكونان إلّا بعد الفراغ من الحج أو العمرة ، فذكرهما مقترنين بدخول مكة تأكيد وإخبار بالغيب لحالة الأمن التي سيكون عليها المسلمون عند دخولهم مكة ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي علم الله ما في تأخير الدخول إلى مكة من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي فجعل الله قبل تحقق الرؤيا بدخول المسجد الحرام فتحاً قريباً : هو فتح مدينة خيبر أو هو صلح الحديبية .

والرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه بأنه سيدخل المسجد الحرام كانت في المدينة المنورة قبل الخروج إلى الحديبية ، فلما وقع ما وقع من الصلح ورجع المسلمون بدون أن يدخلوا المسجد احرام ، وقع في نفس بعض الصحابة شيء من التساؤل ، فجاءت هذه الآية مؤكدة أن هذه الرؤيا

ستتحقق آجلاً وسيسبقها فتح قريب ، وقد تحقق ذلك فعلاً وكشفت الأيام عن وقوعه ، فهذه الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة وبعد فترة وجيزة كان فتح خيبر ، وفي السنة التالية تحققت الرؤيا بحرفيتها إذ دخل النبي ﷺ مكة وأدى العمرة التي تعرف « بعمرة القضاء » وفي العام الذي تلا ذلك كان فتح مكة العظيم ، فقد دخل النبي والمؤمنون مكة بأعداد بلغت عشرة آلاف ، دخلوها فاتحين لها بدون قتال ، كل ذلك أراه الله لنبيه في منامه قبل أن يحدث ويتحقق ، وذلك أن رؤيا الأنبياء حق وصدق لا بد أن تتحقق مع الأيام .

ثم يبين القرآن بعد ذلك حقيقة الدعوة الإسلامية وأهدافها :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٢٨) .

فالله سبحانه أرسل (رسوله) وهو محمد ﷺ ، وقد أضافه الله إلى نفسه ليشرفه بنسبته إليه وليُعلي منزلته ، أرسله الله ﴿ بِالهُدَى ﴾ أي بالرشاد والدين القويم ، كما أرسله سبحانه بـ ﴿ دِينِ الحَقِّ ﴾ أي دين الإسلام الذي قام على الحق ويدعو إلى الحق ، وما جعله الله كذلك إلاّ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ ﴾ أي يقوّيه ويعليه على الأديان كلها ، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ أي أن ما وعده الله من إعلاء على جميع الأديان كائن لا محالة .

هذه الآية نزلت قبل أن يستتب الأمر والسلطة للنبي في جزيرة العرب ، وما هي إلاّ سنوات قلائل حتى أصبحت كل جزيرة العرب تحت سلطة الإسلام ، ولم تمض بضع عشرة سنة من وفاة النبي ﷺ حتى تمت الفتوحات العظيمة ، وظهر الإسلام وعلا على كل الأديان التي كانت في زمانه ، وتحقق وعد الله ؛ وسيعلو الإسلام وينتشر قريباً على جميع الأديان

عندما تصل حقيقته إلى أذهـان الملايين من البشـر ، وها هي تبـاشير ذلـك تلوح في الأفق ، وقـد تنبأ كثيـر من دعاة الإسـلام بأن الإسـلام سينتشر في قارات بكاملها في غضون عشرات السنين بناءً لما لمسوه من تقبُّل النفوس له ، فإنه ما من يـوم إلاّ ويدخـل في الإسلام مؤمنـون جدد استهـواهـم هذا الدِّين لما فيه من هدى وحق .

ثم يختتم اللّه السورة بإبراز صورة عن صحابة النبي ﷺ بمـا هو قـدوة للأجيال القادمة :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ في الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٢٩) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه ﴾ أي ذلـك الرسـول من اللّه الذي جـاء بالهـدى ودين الحق هو محمد ﷺ ، وإذا نـظرنا في القـرآن نرى أن كـل نبي سُمي باسمه مجـرداً عن وصف النبوّة أو الـرسالـة، مثل يـا عيسى ، يا إبـراهيم ، يا موسى ، إلاّ محمداً فقد تفضّل اللّه عليه فوصفه في أكثر المواطن بوصف النبوّة والرسـالة ، كمـا يمكن أن نفهم من هذا التصـريح بعـد رفض الكفار كتـابة ـ رسـول اللّه ـ في معاهـدة الصلح بأنـه رد اعتبـار للنبي وأن اللّه من عليـائـه يمنحـه هـذا الـوصف ، فـلا أهميـة لاعتـراض الكفـار وإنكـارهم لرسالته .

﴿ والَّذِينَ مَعَهُ أشِداءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وصف اللّه أصحاب

محمد ﷺ بأن فيهم غلظة وشدة على الكفار أعداء الإسلام ، ومن جهة أخرى فإنهم يعاملون إخوانهم المؤمنين بالعطف والرحمة ، فالمجتمع المتراحم هو المجتمع الفاضل ، فالرحمة يندرج تحتها التعاطف والعدالة والإحسان ، وهي بالمقابل تنافي الظلم والعدوان والخصام .

هذا الموقف من المؤمنين : شدة مع الكفار ورحمة مع المؤمنين يكشف عن جوهر الإسلام الذي يجعل المؤمن يبني عواطفه مع الغير على أساس العقيدة وحدها فيحبُّ لله ويُبغض لله .

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ فالرائي لهؤلاء المؤمنين يبصرهم يديمون الصلاة التي فيها ركوع وسجود وهم يرجون ثواب الله ورضاه وعونه وكرمه ، فمقصدهم هو هذا الهدف السامي الذي يوحّد بين قلوبهم ، ويهذّب طبائعهم ، ويجعلهم متعلقين بما يُرضي الله .

﴿ سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السِّيما : هي الأثر والعلامة ، وهذا الأثر هو النور والضياء والخشوع والتواضع الذي يفيض على الوجوه من كثرة العبادة ، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : « من كثُرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار »[1] .

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ ﴾ أي هذه صفتهم في التوراة .

أما مثلهم في الإنجيل فهو التالي :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه فَآزَرَهُ فاستغلظ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ فالإنجيل وصف أصحاب النبي بأنهم يكونون في بدء أمرهم في قلة وضعف ثم يكثر عددهم شيئاً فشيئاً حتى يظهر أمرهم ، وقد شبّه

(١) رواه ابن ماجة .

حـالهم هذا بحال الزرع يخرج في بـادىء الأمر ضعيفـاً ﴿ كَـزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَطْأَهُ ﴾ وشطء الزرع ما خرج منه وتفرّع من نبات ، وهذا مما يقـوي الزرع ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي أعانه وقواه ﴿ فاستغلظ ﴾ أي اشتد الزرع يوماً بعد يوم حتى صار غليظاً ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقه ﴾ أي كمل النبات في ذاته واعتدل وقوي أصله ، وسـاق الشجرة أو النبـات أصلها النـابت عليه فـروعهـا . فـالمـراد بالزرع النبي ﷺ ، والشطء : أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقووا ﴿ يُعْجِبُ الـزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّـارَ ﴾ وهـذا الـزرع يعجب الـذين زرعـوه بكثافته وقوته وحسن نباته ، وهكذا كان المؤمنـون جعلهم اللّه بهذه الصفـة ليثير اللّه بقوتهم غضب الكفار .

وإلى هنا تكتمل هذه الصورة المشرقة لصحابة رسول اللّه لتبقى نبراساً مضيئاً للأجيال التي تأتي بعـدهم يقتبـسون منهـا الهدايـة والنور ، وقـد كان هـذا التكريم من ربّ العـالمين لصحـابـة رسـول اللّه يكفيهم ، ولكن إلى جانب هذا يعدهم اللّه في آخر المطاف بالمغفرة والأجر العظيم ليدل بذلك على أن عـطاءه وفضله ليس لـه حـدود ﴿ وَعَـدَ اللّهُ الَّـذِينَ آمنـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

هذه السورة تضع أسساً كاملة لمجتمع مثالي يسوده الحب والسلام .

مجتمع يسير وفق أوامر اللّٰه وتعاليم رسوله محمد ﷺ التي فيها قواعد الحق والعدل .

مجتمع له منهجه في التثبّت من الأقوال والأنباء قبل الحكم على شخص ما .

مجتمع له نظمه العادلة في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وتفرقة .

مجتمع تقوم دعائمه على الأخلاق السامية والسيرة الفاضلة ، وتكون الرابطة بين أفراده قائمة على الاحترام المتبادل .

مجتمع منفتح القلب على الإنسانية جمعاء لا مكان فيه للتعصب والعنصرية ، يكون التمايز فيه بالتقوى والعمل الصالح .

مجتمع يضحي فيه الإنسان بروحه وماله في سبيل اللّٰه الذي هو سبيل الحق والخير .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ
صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ
أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ
وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ
لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ

شرح المفردات

لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِه : لا تتقدموا على أوامرهما فتسبقوهما بقول أو حكم .

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ : مخافة أن يبطل ثواب أعمالكم .

يَغضون أصواتهم : يخفضون أصواتهم .

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُم للتقوى : أخلص قلوبهم للتقوى وطهرها من كل قبيح .

فَاسِقٌ : كاذب وخارج عن طاعة الله .

بِنَبَأ : بخَبَرٍ .

فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ⑥
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ
ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ⑦ فَضۡلٗا مِّنَ
ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ⑧ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي
تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ⑨ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ⑩

شرح المفردات

فَتَبَيَّنُوا : فتثبتوا .

أن تُصِيبُوا قَوْماً بجهالة : لئلا تصيبوا قوماً بتصرفات خاطئة قائمة على غير علم .

لَعَنِتُّم : لنالكم إثم ومشقة شديدة .

زَيَّنَهُ في قُلوبكم : حسَّن الإيمان وجمَّلهُ في قلوبكم .

الرَّاشِدُون : الذين أصابوا طريق السداد والهدى .

بَغَتْ : إعتدت وأبت الصلح .

تفيء : ترجع .

أمْرِ الله : حكم الله .

أَقْسِطوا : إعدلوا .

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ايضـــاح و دروس

يستهل اللّٰه هذه السورة بقوله :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا ﴾ نداءٌ من اللّٰه للمؤمنين فيه من التكريم لهم الشيء الكثير لأنه يناديهم بأحب الأوصاف التي يصف بها عباده ، نداء ما أعذبه من نداء وما أشد وقعه على النفس لأن اللّٰه من عليائه يناديهم بهذا النداء . هذا النداء جدير بأن يهز قلوبهم ويثير انتباههم إلى الاستماع إلى الأمر الملقى إليهم ، والاستجابة له لأنه من مقتضى الإيمان ، وما أجمل ما قاله ابن مسعود : إذا سمعت اللّٰه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا ﴾ فأعرها سمعك .

﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تعجلوا بقضاء أمر من أموركم قبل الرجوع إلى قول اللّٰه وقول رسوله ، أو لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم به اللّٰه ورسوله . هذا الأمر الرباني يعني أن لا تُقدموا أيها المؤمنون على أمر من الأمور دون التقيّد بالقرآن والسنة ﴿ واتَّقُوا اللّٰه ﴾ أي تجنبوا مخالفة أمره ﴿ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهو سبحانه يسمع أقوالكم ويعلم تصرفاتكم فلا تعصوه في أوامره .

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بيان أدب مخاطبة النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكُم وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون ﴾ (٢) .

ينهى اللّه المؤمنين عن رفع أصواتهم بحضرة النبي ﷺ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وعدم الاحترام ، ذلك لأن خفض الصوت من لوازم التعظيم والتوقير كما أن رفع الصوت ينافي التعظيم .

كما نهى اللّه المؤمنين أن يكون خطابهم للنبي ﷺ كخطاب بعضهم لبعض في الجهر بالكلام وعلو الصوت وقلة الوقار ، ذلك أن الإيمان بأن محمداً هو رسول من عند اللّه يدفعهم إلى مهابته في قلوبهم وسريان ذلك على تصرفاتهم معه وخطابهم له .

وقد فهم بعض العلماء من ذلك بأن رفع الصوت في مجلس العلماء مكروه لأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، هذا النهي الرباني للمؤمنين عن رفع أصواتهم في حضرة النبي ﷺ من شأنه أن يردعهم عن الفظاظة في القول ويمكّن فيهم عادة الكلام المهذب الخافت ، وبالأخص مع من يجب توقيرهم كأولي الأمر والوالدين والمربين ومن هم أكبر منهم سنًا وفضلاً . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم ﴾ الحبوط : البطلان ، وذهاب الشيء هدراً ، أي مخافة أن يذهب ثواب أعمالكم هدراً ، فتبطل حسناتكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوت النبي ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون ﴾ مغبة رفع الصوت أمام النبي ﷺ وما يترتب عليه من بطلان ثواب الأعمال .

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية ما رواه البخاري بأن الأقرع بن حابس قَدِمَ على النبي ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول اللّه استعمله على قومه

« أي أمّره » فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبي حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلاّ خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، قال فنزلت هذه الآية : ﴿ لاَ تَرْفَعُوا أصواتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ ولذلك كان الصاحبان أبو بكر وعمر بعد ذلك لا يكلمان النبي إلاّ كالهمس تأدباً مع النبي ﷺ .

ثم بيّن الله ثواب الذين يراعون أدب الخطاب في حضرة نبيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

فالذين يخفضون أصواتهم في حضرة النبي ﷺ محترمون له وموقرون ، هؤلاء ﴿ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أي أخلص قلوبهم للتقوى ، وقيل : وسّعها وشرحها للتقوى ، هؤلاء لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، وثواب بالغ العظم .

ثم انتقد القرآن بعد ذلك تصرفات بعض العرب تجاه نبيهم :

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكثَرُهُم لا يَعْقِلُون . وَلَوْ أَنَّهُم صَبَرُوا حتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِم لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤ - ٥) .

والمراد بالحجرات : الغرف التي كان يسكن فيها النبي ﷺ مع نسائه ، وكانت هذه الغرف ملاصقة لجدار المسجد .

هذه الآية نزلت في أعراب بني تميم ، وقد قَدِم وفد منهم على رسول الله فدخلوا المسجد ونادوا رسول الله من وراء الحجرات بقولهم : أن

اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زيْنٌ[١] وإن ذمّنا شيْن[٢] ، فآذى صياحهم هذا رسول الله ، فخرج إليهم فقالوا : إنّا جئناك يا محمد نفاخرك ، وقد نزلت هذه الآية في حقهم ناعتة إياهم بأن ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ أي لا يسيرون على مقتضى العقل ، ولا يراعون الأدب مع رسول الله في ندائهم على تلك الصفة البعيدة عن الذوق والأدب .

ثم أوضح القرآن لهم أن الأجمل في حقهم الانتظار حتى يخرج رسول الله إليهم ، فهو ما كان يحتجب عن أحد أبداً ، وهو في كل الأحوال موجود في المسجد للصلاة وتعليم الناس أمور دينهم ، وما كان يدخل حجرات نسائه إلّا لتناول الطعام أو الراحة ، ولا بد أن يكون في المسجد من أفهم بني تميم هذه الحقيقة ، ولكنهم أبوا إلّا أن يخرج إليهم رسول الله فور وصولهم .

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه المؤمنين للتثبت من الأقوال والأخبار قبل تصديقها والتصرف على أساسها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصِيبوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمين[٣] ﴾(٦) .

---

(١) زيْن : حسن . (٢) شيْن : قبيح .

(٣) هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة الذي أرسله النبي ﷺ ليجمع صدقات بني المصطلق ، فلما سمعوا بمقدمه أعدوا أنفسهم للقائه تعظيماً لمن بعثه رسول الله ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله لعداوة سابقة بينه وبينهم ، فرجع إلى النبي وقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم وهموا بقتله فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه وهمّ بغزوهم . ولكن بني المصطلق لما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، بعث إلينا مُصَدِّقاً (أي لتجمع الصدقات) فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله . . . ثم نزلت الآية مبينة الحقيقة التي كانت خافية عن العيون .

هـذه الآية تقـرر مبدأ هـامـاً للسلوك الإنسـاني لـه خـطره وأهميتـه في المجتمع . فالآية تقول : أيها المؤمنون إن جاءكم شخص خارج عن طاعة اللّه بأي خبر من الأخبار فتبّتوا من صدقه ، وصدق الأخبار التي جـاء بها ، احترازاً أن تصيبوا أي قوم بأذى بـسبب الجهل بواقع الأمور ، فتصبحـوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلازمكم الحزن والندم على تصرفاتكم .

هذا وكم فرقت الأخبار الكاذبة بين الأصدقاء وكم سفكت من الدماء .

وبعـد وصية اللّه للمؤمنين بـالتثبت من الأخبار قبـل الأخـذ بهـا ، يبين سبحانه فضله على المؤمنين :

﴿ واعْلَمُـوا أنَّ فِيكُم رَسُولَ اللّهِ لَـوْ يُطِيعُكُمْ في كَثِيـرٍ مِنَ الأَمْـرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَـان وَزَيَّنَـهُ في قُلُوبِكُمْ ، وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْـرَ والفُسُـوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِـكَ هُمُ الرَّاشِـدُونَ . فَضْـلاً مِنَ اللّه وَنِعْمَـةً واللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧ ، ٨) .

أي واعلمـوا أن رسـول اللّه يعيش في وسـطكم وجمـاعتكم فعـظمـوه وأطيعوا أمره ، فهو لو يـطيعكم في كثير من الأمـور ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لوقعتـم في الإثم والمشقـة والهلاك ﴿ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمـان ﴾ أي جعـل الإيمان أحب الأشياء إليكم فلايجدر أن يقع منكم إلاّ ما يـوافقه من الأمـور الصالحة ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكم الكُفْرَ ﴾ والكفـر هو نقيض الإيمـان ، وكذلـك كرَّه إليكم ﴿ الفُسُوقَ ﴾ وهي الذنوب الكبار وكل فعل يخـرج عن طاعـة اللّه . كما كرّه إليكم ﴿ العِصْيَان ﴾ أي جميع المعاصي . فمن كره هذه الصفات ﴿ أولئك هـم الراشـدون ﴾ أي الذين أصـابوا الهـدى والسداد وابتعـدوا عن الغي والضلال : ﴿ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَنِعْمَـةً ﴾ أي هذا الإيمـان الذي يقتضي

الـرشد هـو فضـل من اللّه ، ونعمـة منـه عليكم ﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بأحوالكم حكيم في ما شرعه لكم .

ثم يبيّن اللّه كيفيـة القضـاء على المنـازعـات بين جمـاعـات المؤمنين وما ينشأ عن ذلك من قتال وتفرقة :

﴿وَإِنْ طَـائِفَتَـانِ مِنَ المؤمِنينَ اقتتلوا فَـأَصْلِحُـوا بَيْنَهمـا ، فَـإن بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الأخـرى فَقَـاتِلوا التي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْـرِ اللّهِ ، فَـإِنْ فَـاءت فَـأَصْـلِحُـوا بَيْـنَهُـمـا بـالـعَـدْلِ ، وَأَقْـسِـطُوا إِنَّ الـلَّهَ يُـحِـبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ (٩) .

فـالآية تـدعـو المؤمنين إلى أن يقـومـوا بـالإصـلاح بين جمـاعتين من المؤمنين نشب بينهمـا قتال وذلـك بدعـوة المتخاصمين إلى حكم اللّه وهـو القــرآن الـذي فيــه مـوازين الحق والعــدل ﴿ فَـإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَـا عَلَى الأُخْرى ﴾ أي فإن تعـدت إحدى الجمـاعتين على الأخرى ، ولم تـستجب إلى حكم اللّه ، أو بغت الجمـاعتان معـاً بـرفض الصلح ، أو رفض قبـول حكم اللّه في المســائـل المتنـازع عليهـا ﴿ فَقَـاتِلوا التي تبغي ﴾ أي فعلى المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية ، لأن البغي فســاد في الأرض واعتداء على العدل الذي يأمر اللّه به ﴿ حتى تَفِيءَ إلى أمرِ اللّه ﴾ حتى ترجع إلى حكم اللّه الـذي حكم في كتابـه بين خلقه ﴿ فَـإن فَاءَتْ ﴾ أي فـإن رجعت الفئة البـاغية عن التعـدي ﴿ فـأصلحـوا بينهمـا بـالعـدل ﴾ أي ليكن الصلح بين الطائفتين المتنازعتين قائماً على العـدل ، وذلك بـالإنصاف بينهمـا وإعطاء كـل ذي حق حقـه . ﴿ وَأَقْسِـطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسِـطِينَ ﴾ والقسط هـو

العدل أي واعدلوا إن اللّه يحب العادلين . فالدعوة إلى العدل جاءت بصيغة الأمر الرباني للمؤمنين ثم عقب القرآن على ذلك بأن اللّه يحب العادلين وفي هذا حث للمؤمنين ودعوة لهم على تحري العدل والتمسك به وجعله أساساً في أحكامهم ومنازعاتهم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى إرساء الجامعة الإسلامية بين المؤمنين وإحاطتها بحوافظ تقيها من البغضاء والتفرقة ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّمَا المؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُون ﴾(١٠) .

فالقرآن يعتبر المؤمنين (إخوة) وهذه اللفظة توحي بالمحبة والتعاطف والتناصر ، لأن هذه اللفظة مأخوذة من أخوّة النسب التي تحمل هذه المعاني ، وفي ذلك إشارة إلى استحكام الروابط بينهم حتى كأنهم من أب واحد ، والغرض من إطلاق اسم الأخوة عليهم تحريك عاطفة الصلة بينهم حتى يهتم كل واحد منهم بما يمس الآخر من ضر كما يهتم بمصلحة أخيه .

هذا وإن الإسلام يعتبر أخوّة الدِّين أحق بالمراعاة من أخوة النسب ، لأن أخوة النسب تنقطع شرعاً بالخروج من ربقة الإسلام ، أما أخوّة الدِّين فهي راسخة لأنها قائمة على عقيدة الإيمان ولكن لا توارث فيها .

وقد أوصى النبي ﷺ بترسيخ معنى الأخوة بين المؤمنين فقال :

« مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

هـذه الأخوة الإسـلامية التي قـررهـا القـرآن يجب أن يعي المسلمـون مضمـونها وحقيقتهـا ، فهم في بقاع الأرض إخـوة في الـدِّين عليهم واجب الـدفـاع عن بعضهم البعض ، ومعـونـة المحتـاج منهم ، والتعـاون لنشـر الإسلام الذي يحمل رسالة الحق والخير للإنسانية .

وبعد أن قرّر القرآن أخوة المؤمنين بعضهم لبعض ، أمر بالإصلاح بين المتخاصمين منهم : ﴿ فَأَصْلِحُـوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ وَعَقَّب القـرآن على ذلك بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُـون ﴾ وهذا وعـد من اللَّه بإسبـاغ رحمته على مَنِ اتقــاه ، لأن تقـوى اللَّه تُضفي الألفــة والتعـاطف والتـراحم بين المؤمنين وبهذا تشملهم رحمة اللَّه تعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ
مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ
خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ
آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

شرح المفردات

لا يَسْخَر : لا يستهزىء .

لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ : لا يعب ولا يطعن بعضكم بعضاً .

وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ : ولا يَدْعُ بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب .

لا تجسَّسوا : لا تتبعوا عورات المسلمين .

يَغْتَبْ : الغيبة ذكر الغير بما يكره في غيبته .

أَتقاكُم : تقوى الله : هي تجنب عذابه وذلك بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه .

آمَنَّا : صدقنا بقلوبنا .

أَسْلَمنا : أصبحنا مسلمين ، والإسلام هو الانقياد لأوامر الشرع .

لَمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قُلُوبِكم : أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعدُ .

وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

لا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ : لا ينقصكم من ثواب أعمالكم .

أَتُعَلِّمون الله بدينكم : أتخبرون الله بحقيقة إيمانكم .

تـابع سُورَة الحُجُرات

ثم ينتقـل القرآن بعـد ذلك إلى بيـان الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون .

والمتمعن في هـذه الآداب يرى أنهـا تنفـرد عن الآداب التي أتت بهـا الأديـان السـابقـة ، كما أنهـا تـسمو على الآداب التي طـالعتنا بهـا المـدنيـة الحـديثـة التي هي آداب شكليـة ظـاهـريـة لا تنفـذ إلى أعمـاق النفس وأحاسيسها .

فالآداب القرآنية تحرص على احترام الغير وحفظ كرامته حـاضراً كـان أم غـائباً ، وتثبيت المحبـة في القلوب وصونهـا من كـل تصـرّف يؤدي إلى البغضاء والخصام . يقول تعالى :

﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَـرْ قَوْمٌ مِنْ قَـوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُـوا خَيْـراً مِنْهُمْ ، وَلاَ نِسَـاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْـراً مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِـكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١) .

فـالقرآن ينهى المؤمنين أن يسخـر قوم من قـوم ، والسخريـة هي الهزء بـالغير واحتقـاره ، والقوم يـطلق على جماعـة من الرجـال والنسـاء ، فقـد يستهزىء الرجل الغني بالرجل الفقير الرثّ الثياب ، والرجل القوي بالرجل الضعيف أو ذي العاهة ، كما قد تـستهزىء المرأة الجميلة بـالمرأة القبيحـة والمرأة ذات الحسب والنسب بالوضيعة النسب ، والشابة من العجوز ولكن هل يدري المستهزئون بالناس بأن المستهزأ بهم قد يكونون خيراً منهم عند الله ﴿ عَسَى أن يكـونوا خَيْـراً مِنْهُم ﴾ فيكون المؤمن بـذلك قـد ظلم نفسـه

لأنه حَمَّلها إثماً بالاستهزاء بمن فضله الله عليه ، وهذا إشعار بأن الميزات الظاهرة في الرجال والنساء ليست هي الميزات الحقيقية التي يتفاضل بها الناس ، فهناك قِيَم أخرى يتفاضل بها الناس عند الله منها سلامة الطوية والنية الطيبة والأخلاق الرفيعة والعمل الصالح .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾ فقد خصّ القرآن النساء بالذكر مع أن عبارة (قوم من قوم) تشملهن ، لأن السخرية تصدر من النساء أكثر من الرجال كما هو مشاهد في أحوالهن . هذا وقد استأصل النبي دواعي السخرية من الأعماق بهذا القول الحكيم : « إنَّ اللَّهَ لا ينظُرُ إلى صُوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم ﴾ أي لا يعب ولا يطعن بعضكم بعضاً ، والتعبير (بأنفسكم) بدلاً من لفظ « غيركم » إشعار بوحدة الجماعة الإسلامية لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فالمؤمن عندما يعيب غيره إنما يعيب نفسه[٢] ، والطعن بالغير منفذ لتسرّب العداوة إلى قلوب المؤمنين ولهذا نهى الله عنه .

ولقد أصبح الطعن بالناس من سمات هذا العصر ، فترى ذلك السياسي المرموق يطعن بسياسي آخر على صفحات الصحف قاصداً الحط من منزلته ليتبوأ هو المكان الأفضل فيسيء بذلك إليه وإلى أنصاره ومؤيديه ، وترى كثيراً من الناس يبتغون من الطعن بالغير سبيلاً لتنفيس

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ومثل ذلك جاء في القرآن ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة فكأن المؤمن يقتل أخيه قاتل نفسه .

حسدهم وإفراغ حقدهم ، أو سبيلاً للظهور ، وهكذا أصبح الطعن بالناس من الأمراض الشائعة في مجتمعنا الحاضر يفعله أكثر الناس غير آبهين بنهي اللّه عن هذا العمل الآثم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب ﴾ أي لا يدع بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب ، كأن يقول له : يا فاسق ، ويا منافق ، ويا كافر ، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال ، وإلاّ رجعت عليه » وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ، فنهى اللّه أن يُعيّر بما سلف . ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافراً ، أو فاسقاً ، أو زانياً بعد إسلامه وتوبته . أو بمعنى : أن من لقَّب أخاه بما يكره ، أو سخر منه فهو فاسق ، أي خارج عن طاعة اللّه . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن لم يترك هذه الخصال الذميمة فهو ظالم ، واللّه لا يحب الظالمين .

ويتابع القرآن ذكر الآداب التي يجب أن يتخلق بها المسلم :

﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا اجتنبوُا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه ، وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾(١٢) .

أمر اللّه سبحانه باجتناب كثير من الظن لأن أكثره قائم على الأوهام ويؤدي بالإنسان إلى الخروج عن جادة الحق ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيئاً ﴾ يونس : ٣٦ .

وهناك ظنون سيئة في الإنسان تؤدي إلى اتهام الأبرياء زوراً وبهتاناً ومعاملتهم بالسوء حسب ما يوحي به الظن مما يثير البغضاء في القلوب ،

ولقد وصف اللّه هذه الظنون السيئة بأنها إثم يجب اجتنابه : ﴿ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ومدار التحريم إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الصلاح والسيرة الحسنة ، أما من اشتهر بتعاطي المنكرات والمجاهرة بالمعاصي فلا يحرم الظن السيء به .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ نهى اللّه المؤمنين عن التجسس لأنه يتجاوب مع الظن السيء ، فالتجسس هو كشف العورات ، والإطلاع على مساوىء الغير ، والقرآن ينكر التجسس لأن للناس حرماتهم التي يجب أن لا تنتهك ، فالناس يحكم عليهم حسب ظواهرهم ، وليس لأحد أن يكشف عن أسرارهم ، ولا أن يؤاخذهم إلاّ بما يظهر منهم من أعمال .

أما ما تفعله الحكومة من بث العيون لتتبع خطوات المفسدين والمخربين فهو ليس من التجسس الذي نهى اللّه عنه لأنه يعتبر من باب درء المفاسد ونفعه يعود على الأمة شرط أن يُراعى في ذلك حرمات الناس .

ثم يقول سبحانه مخاطباً المؤمنين ﴿ وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ والغيبة هي أن يذكر المؤمن أخاه المؤمن بما يكره في غيبته ، سواء أكان الذكر صراحة أم كناية ، أم إشارة ، أم كتابة ، وسواء أكان ما يذكره متعلقاً بدينه أو دنياه ، وبخُلُقه أم خَلْقه .

وقد قال النبي ﷺ في تعريف الغيبة : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه »[1] أي كذبت وافتريت عليه .

---

(١) رواه مسلم .

وقد نقل القرطبي في تفسيره عن إجماع المسلمين على أن الغيبة من كبائر الإثم .

وللغيبة أسباب : أهمها الغيظ ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها نحوه ، ولمجاملة الرفقاء ، ورغبة في أن يرفع الإنسان نفسه بالانتقاص من غيره ، ومنها : الحسد .

والقرآن نفّر من الغيبة حتى جعل الذي يغتاب أخاه كأنه يأكل لحمه ميتاً ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً[١] فَكَرِهْتُموه ﴾ وقد ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة فهي حرام في الدِّين ، وقبيحة في النفوس فكما أنت أيها المؤمن تكره أن تأكل من جيفة مدودة فكذلك فاكره أن تغتاب أخاك المؤمن وهو حي . أما المجاهر بالفسق ، والداخل في مواطن الريب فلا يحرم ذكر حاله إذا قُصِدَ التنفير من عمله والتحذير من سلوكه ، فهو حين تجاهر بالفسق كشف السِتر عن نفسه .

فالغيبة من أقبح الصفات التي تعكر صفو العلاقات بين الناس . ذلك أن الذي يوثق المودة بين المؤمنين هو تلك النفوس الطيبة التي تضمر الود والخير والاحترام للناس ويتبدى ذلك في قسمات الوجه واللهجة الصادرة من القلب . أما الكلام عن الغير في غيبته بما يسوؤه ويخدش من كرامته فهو تعكير لأجواء النفوس وخدش لتلك الرابطة الوثيقة التي تربط بين

---

(١) أما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر فشديد المناسبة جداً وذلك أن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة . وأما قوله تعالى : ﴿ لحم أخيه ميتاً ﴾ لأن المغتاب لا يشعر بمن يغتابه ولا يحس بالغيبة كما لا يحس الميت بشيء .

المؤمنين .

هذا وإن الشخص الذي تغتابه قد يصله كلامك فيه عن طريق أحد النمامين أو السذج فيكون ذلك مدعاةً للحقد والكراهية بينك وبين الذي اغتبته ، لهذا حرم الإسلام الغيبة وشدّد في النهي عنها .

ثم يختم اللّه هذه الآيات بقوله : ﴿ واتقوا اللّه إن اللّه تواب رحيم ﴾ فمن يتقي اللّه ويجتنب ما نهى عنه ويقلع عن فعل هذه الصفات الذميمة فإن اللّه يقبل التوبة عن عباده وهو رحيم يرشدكم إلى ما فيه خيركم .

وبعد ذلك انتقل القرآن إلى مخاطبة الناس جميعاً في آية لا تزال هي النبراس في التمايز بين الشعوب ، كما أنها تعتبر الحجر الأساسي للسلام العالمي :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١٣) .

ففي هذه الآية الكريمة يدعو اللّه الناس جميعاً ، ولا يدعو شعباً بعينه ، مبيناً أصلهم الأول وهو : آدم وحواء ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ وإذا كان الناس من أب واحد ، وأم واحدة ، فلا محل لأن يدعي بعضهم العلو على البعض الآخر من ناحية الجنس ، أو من ناحية اللون.

ثم تُبيّن الآية أن الناس وإن تفرقوا في البلاد ، واختلفوا في الأجناس والمعتقدات والألوان ، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوّة الانسانية بل توجب عليهم أن يتعارفوا ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ والتعارف يدعو إلى التآلف والتواد والسلام بين الشعوب .

فالتعارف الإنساني يوجب أن يفيض أهل كل إقليم بفائض رزقهم على

الإقليم الذي شحّت أرضه وقلّ رزقه ، ونضب ماؤه ، والتعارف يؤدي إلى التعاون في رفع راية الحق ، ومحاربة الباطل والظلم .

ثم يأتي الشطر الأخير من الآية ليقضي على رواسب العصبية التقليدية في النفوس من ادعاء كل شعب بأنه أحق بالزعامة والكرامة ، وكذلك في محيط الأسر التي تتفاخر بالأنساب والأمجاد والغنى حيث تنطق الآية ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ والتقوى هي اجتناب ما نهى الله عنه من الشر خيفة من عذابه ، والوقوف عند حدود الله وامتثال أوامره ، والعمل بما أمر به من العمل الصالح . فالتفاضل بين الناس لا يكون إلاّ على أساس أعمالهم الصالحة وما يتحلون به من قيم خيّرة .

وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ في حجة الوداع : « يا أيها الناس : إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على احمر ، ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى »[1] .

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على بعض الأعراب الذين ادعوا الإيمان ، ومنّوا على رسول الله بإيمانهم :

﴿ قالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) .

نزلت هذه الآية وما بعدها في أعراب بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله في سنة مجدبة وأشهروا الشهادتين ، يقولونها بألسنتهم وليس

---

(١) رواه الإمام أحمد .

في قلوبهم . . . وكانوا يقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنّون عليه .

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ ليس المراد بالأعراب عموم الأعراب بل المراد بعضهم الذين جاءوا رسول اللّٰه . والإيمان هو التصديق بالقلب . ولكن اللّٰه رد على ادعاءاتهم ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ فهذا تكذيب لهم في آدعائهم الإيمان لأن الحاجة وحدها هي التي ألجأتهم إلى الإسلام ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ والمراد بالإسلام هنا : التسليم الظاهري بما جاء به محمد أي الإقرار باللسان والطاعة بالأعمال ولا يدخل فيه التصديق بالقلب ، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبكُم ﴾ أي لم يدخل العلم بحقائق الإيمان بَعدُ إلى قلوبكم ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وإن تطيعوا اللّٰه ورسوله صادقين وتعملوا بأوامرهما ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصكم شيئاً من أجور أعمالكم وثوابها ﴿ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فهو سبحانه غفور لمن تاب ذو رحمة واسعة .

ثم بيّن اللّٰه سبحانه حقيقة الإيمان التي غفل عنها هؤلاء الأعراب :

﴿ إِنَّما المؤمِنُون الَّذينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِم وَأَنْفُسِهِم في سَبِيلِ اللّٰهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١٥) .

فالإيمان الحقيقي هو تصديق القلب بوجود اللّٰه ونبوة محمد ﷺ تصديقاً لا يخامره شك ولا ريب ، وتكون ثمرته الجهاد بالمال والنفس في سبيل اللّٰه . والجهاد : بذل الجهد بأقصى الطاقة .

فالجهاد في سبيل اللّٰه بالمال يكون بالإنفاق على تجهيز الجيش الإسلامي ، وكذلك الإنفاق في جميع أنواع البر كالزكاة والصدقة ، وبناء المساجد ونشر دعوة الإسلام ، وإنشاء دور العلم والمستشفيات والمصانع

التي توفر العمل للفقراء والعاطلين عن العمل وتحقق للأمة اكتفاءها بنفسها ودفع الحاجة عنها .

والجهاد بالنفس يشمل قتال الأعداء والمرابطة على حدود الوطن للحراسة ورد المعتدي ، وتأييد الحق .

وقد روي عن أبي موسى رضي اللّه عنه أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجلُ يُقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر[١] والرجلُ يُقاتل ليُرَى مكانه[٢] فمن في سبيل اللّه ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه[٣] .

يتبيّن لنا مما سبق أن الإيمان الحقيقي ليس إدعاءات ترددها الألسن ، ولكنه سلوك خاص يضع فيه الإنسان روحه وماله في سبيل اللّه الذي هو طريق الحق والخير ، هؤلاء الذين يسيرون على هذا الدرب ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي في إيمانهم .

ثم يعود القرآن إلى مخاطبة هؤلاء الذين ادعوا الإيمان وهم بعيدون عن حقيقته :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ واللّهُ يَعْلَمُ ما في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ واللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٦) .

أي أتخبرون اللّه بعقيدتكم وتقولون آمنا والإيمان شعور في القلب يصدقه العمل ، ولا يعلم ما في القلب إلا اللّه الذي يعلم كل ما في

---

(١) للذكر : للشهرة .
(٢) ليرى مكانه : أي مرتبته في الشجاعة .
(٣) رواه البخاري .

السماوات وكل ما في الأرض والله محيط علمه بكل شيء .

ثم يستنكر القرآن منّتهم على رسول الله بإسلامهم :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أن أسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَدَاكُمْ لِلإيمَان إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (١٧) .

لقد منّ هؤلاء الأعراب على النبي ﷺ بإسلامهم فجاءهم الرد بأن لا يمنوا ، لأن إسلامهم لا تعود ثمرته إلاّ على أنفسهم ، بل إن المنة للّه تعالى عليهم حيث هداهم إلى الإيمان الذي فيه سعادتهم ، فإن كانوا صادقين في دعواهم فقد اهتدوا بهداية اللّه إياهم ، وإن لم يكونوا صادقين فلا معنى لهذه المنة فحقهم أن يخجلوا من أنفسهم .

ثم يختم اللّه هذه السورة بقوله :

﴿ إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعملون ﴾(١٨) .

اللّه الذي يعلم غيب السماوات والأرض هو بلا ريب يعلم تصرفات وأعمال الإنسان ، ويعلم ما تكنه القلوب ، وما تخفيه النفوس . وإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة كان ذلك أكبر حافز له لتجنب الشر والمعاصي ، لأنه يدرك أن اللّه لا تخفى عليه خافية من أعماله وتصرفاته ، فيسعى جهده لأن تكون أعماله منصبة في مرضاة اللّه سبحانه .

سُورَةُ قٓ

هذه السورة تعالج قضية البعث بعد الموت ، وما يحصل حينئذٍ من حساب على الأعمال .

ولما كانت الحياة الأخرى يستبعدها بعض الناس ، وينكر وجودها ، جاءت هذه السورة تثبت البعث عن طريق العقل والحجة والبرهان ، وتبين عدم استحالته .

وتبيّن هذه السورة بأن الله أوكل بالإنسان ملائكة يحصون عليه أعماله ليحاسب عليها يوم الجزاء ، كما أنها تـذكُرُ بمصير الأقوام السابقين الذين كذّبوا رسل الله ، ذاكرة ما حاق بهم من هلاك جزاء كفرهم ، وفي ذلك تثبيت لقلب النبي محمد ﷺ ، وإنذار لقومه إن استمروا على كفرهم بأن يحل بهم العذاب بمثل ما حل من قبلهم من الكافرين من هلاك ، كما تبيّن هذه السورة مصير المؤمنين وما أعد الله لهم من نعيم في الآخرة ، ومصير الكافرين وما أعد الله لهم من عذاب دائم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ④ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ

شرح المفردات

وَالقُرآنِ المَجِيدِ : قَسَمٌ بالقرآن الكثير الفوائد الدنيوية والأخروية .

مُنْذِرٌ مِنْهُم : هو محمد ﷺ يخوف قومه عاقبة كفرهم .

رَجْعٌ بَعِيدٌ : الرجوع إلى الحياة بعد الموت أمر مستبعد غير ممكن .

ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُم : ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت .

كِتَابٌ حَفِيظٌ : كتاب يحفظ أعمال بني آدم لمحاسبتهم عليها .

أمرٍ مَرِيجٍ : أمر ملتبس عليهم مضطرب لا يعرفون حقه من باطله .

فُرُوجٍ : شقوق وفتوق وتصدع .

والأرض مَدَدْنَاهَا : بسطناها للاستقرار عليها .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ : من كل صنف من النبات حسن المنظر .

لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

شرح المفردات

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى : تبصيراً بقدرة الله ، وتذكيراً بعظمته .

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ : لكل عبد راجع إلى ربه بالتوبة .

مَاءً مُبَارَكاً : كثير الخير والبركة لما ينتفع به .

جَنَّاتٍ : جمع جنة وهي الحديقة ذات الشجر .

حَبُّ الحَصِيد : حب الزرع الذي شأنه أن يُحصد كالقمح والشعير وغيرهما .

باسِقَات : عاليات طويلات .

نَضِيد : متراكم بعضه فوق بعض .

كَذَلِكَ الخُرُوج : أي هكذا يخرجكم الله من القبور أحياء يوم البعث .

سُورَةُ قٓ

ايضـاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالقسم بالقرآن بقوله :

﴿ قٓ[1] ، وَالقُرآنِ المَجِيدِ ﴾ (١) .

﴿ وَالقرآن ﴾ الواو هي للقسم ، فالله سبحانه يقسم بالقرآن الذي من صفاته : ﴿ المَجيد ﴾ أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب ، وقيل بمعنى : الكريم ، أو الكبير القدر . وجواب القسم جملة : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرْضُ مِنْهم ﴾ .

---

(١) ق : حرف من حروف الهجاء : بدأت به هذه السورة كما بدأت به كثير من السور . وقد قيل في تفسير ذلك أقوال كثرة . منها : إن الله ذكر هذه الأحرف لينبه الكفار أن القرآن ألفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم في لغتهم التي يتخاطبون بها ، فهو قرآن عربي جاء بلغتهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ، ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن وحي إلٰهي .

ومنها : أن هذه الأحرف قرع لأسماع هؤلاء الجاحدين وإثارة لانتباههم ، وهم الذين تواصوا فيما بينهم ألاّ يسمعوا هذا القرآن ، فالإتيان بهذه الأحرف في فواتح السور على غير المعهود في أساليبهم ، فيه استهواء لهم على سماع القرآن الذي أنكروا أنه من عند الله . والجدير بالذكر أنه جاء عقب هذه الحروف في أكثر المواضع ذكر القرآن الكريم وصفاته العلية لتأكيد أنه من عند الله .

ومنها : أن (ق) اسم من أسماء الله ، وقيل هو اسم من أسماء القرآن ، وقيل (ق) هو افتتاح لأسماء الله التي تبدأ بحرف (ق) مثل قدير ، قاهر ، قريب ، قابض .

وقد طالعنا أحد الأساتذة المشتغلين بالكمبيوتر بهذه الحقيقة وهي أن حرف « ق » الذي هو في مستهل سورة قٓ وسورة الشورى يتكرر في كل من هاتين السورتين بعدد ٥٧ مرة أي أن مجموع تكرار حرف ق في هاتين السورتين هو ١١٤ مرة وهذا العدد هو عدد سور القرآن . وحرف ق يرمز للقرآن كما جاء في هذه السورة ﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ .

وافتتاح السورة بالقسم يؤذن بأن الموضوع الذي سيطرح هو خطير يستدعي الانتباه والاهتمام .

ثم يردّ اللّه سبحانه على المشركين الذين أنكروا نبوة محمد ، وأنكروا البعث :

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُم فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾(٢ ـ ٣) .

لقد تعجب المشركون أن يأتيهم رسول من عند اللّه ـ وهو محمد ﷺ ـ بخوفهم عذاب ربهم إن استمروا على الكفر ، وموطن العجب عندهم هو أن النبي محمداً ﷺ هو بشر مثلهم ، وكان الأجدر في زعمهم أن يكون معه ملك من الملائكة يصاحبه في دعوته كما ذكر القرآن في موضع آخر عن لسانهم : ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ إليه مَلَكٌ فيكون مَعَهُ نَذِيراً ﴾ الفرقان : ٧ .

وكما عجب المشركون من إرسال الرسول ، فقد عجبوا أكثر من موضوع البعث الذي أخبرهم به ، وأنهم سيُبعثون أحياء يوم القيامة للحساب ، وكان اعتراضهم على ذلك بقولهم : ﴿ أإِذَا مِتْنَا وكنا تُراباً ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ ﴾ أي كيف سنرجع أحياء بعد موتنا ، وقد تحللت أجسادنا وصارت تراباً ، ذلك أن البعث بعد الموت ـ هو في نظرهم ـ رجوع إلى حياة أخرى بعيدة الوقوع لا تستسيغها العقول ، ولا تقرّها الأفهام .

وبعد هذا الإنكار والرفض من جانبهم للبعث يجابه اللّه إنكارهم بقوله :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾(٤) .

أي أن اللّٰه يعلم ما تأكل الأرض وما تأخذه من أجسامهم بعد الموت ، ومن كان عالماً بذلك كان قادراً على إرجاعهم للحياة بعد الموت ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ وعنده سبحانه كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، وحافظ لأعمال بني آدم ليحاسبهم عليها لا يفوت منه شيء .

ولم يقتصر إنكار المشركين على البعث ، بل كان إنكارهم يشمل أساس الدعوة الإسلامية :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٥) .

وتكذيبهم بالحق المراد به : القرآن ، بما يشتمل عليه من إثبات البعث ، فهم أمام هذا الحق الذي أنكروه ﴿ فَهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس لا يعرفون حقه من باطله .

أمام هذا الواقع ، وأمام هذا الإنكار للبعث ، ينتقل القرآن إلى لفت الأنظار إلى قدرة اللّٰه البادية في خلق السماء حيناً ، وفي خلق الأرض حيناً آخر ، ثم في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به ، وكلها آيات دالة على قدرة اللّٰه التي لا تعجز عن إعادة الإنسان حياً ، يقول تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦) .

حقاً ليس ما يقربنا إلى اللّٰه ويزيد في إيماننا إلاّ التأمل في ملكوت السماء والأرض ، وليس غريباً أن كَثُرَ الإلحاد في عصرنا الحاضر بعد أن أصبح البشر يعيشون في المكاتب والمصانع والمناجم وضوضاء المدن وهم بعيدون عن الطبيعة وجمالها وسكونها وما توحيه من إيمان واتصال باللّٰه .

فاللّه سبحانه لفت الأنظار إلى السماء بقوله : ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ والبناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بمواد معينة ، وهكذا فعل اللّه بالنجوم والكواكب حين وضع كلاً منها على بعد معين من الآخر لا يتخطاه ، مع ما يمسك كلاً في مداره وذلك برباط الجاذبية ، حتى كان منها عالم واحد سمي باسم السماء التي تعلونا ، ويضيف اللّه سبحانه قوله في السماء : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ إشارة إلى ما فيها من بلايين النجوم والكواكب التي يشع بعضها القريب منا بأنواره الثاقبة ، كما تشع الزينة التي يصنعها الإنسان يوم الأفراح ، ولكن الزينة التي أبدعها اللّه في هذا الكون هي زينة أبدية ، تسبح بحمد اللّه ، وتشهد بعظمته ، وتثير الإيمان والخشوع في النفوس لخالقها .

﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ « ما » هنا حرف نفي بمعنى ليس . أي ليس في السماء تصدّع ولا شقوق ولا خلل ، والمراد بذلك : الدقة والنظام والتوازن الذي يقوم عليه ملكوت السماء .

وفي مواجهة جمال السماء حين تختفي نجومها بعد إطلال النهار ، يوجّه القرآن الأنظار إلى الأرض وما فيها من إبداع كما يدعو إلى التمتع بجمال النبات والزهور والتملي من منظرها لاستشعار عظمة القدرة الإلٰهية :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٧ ـ ٨) .

فاللّه سبحانه مد الأرض ، أي بسطها ، وجعلها صالحة للسكنى ، ولم يجعلها صخوراً ناتئة ، وبراكين تقذف بالحمم ، ووديانا سحيقة ، كما

هـو الحال في طبيعة القمر ، وكلمة ﴿ مَدَدْنَـاهَا ﴾[١] مـدّ الأرض : بسطهـا وسوّاها وهذه الكلمة يدرك أسرارها أكثر من غيرهم المسافـرون في الطائـرة حيث يـطوون المسـافـات البعيدة بمـدة قصيرة فـلا يرون تحتهم إلاّ الأرض وهي تمتـد أمام أنـظارهم سهولاً وجبـالاً وبحاراً ، كـل ذلك يشهـد بعظمـة القدرة الإلٰهية .

﴿ وَأَلْقَيْنَـا فِيهَـا رَوَاسِيَ ﴾ أي أن اللّه جعـل في الأرض جبـالاً ثـوابت لا تتشقق وتنهار لأي عارض طبيعي ، هـذه الجبال جعلهـا اللّه مـستودعـات للميـاه بما تختـزنه من ميـاه الأمطار والثلوج ، ومنهـا تسيل اليـنابيع فتـسقي صنوف النبات التي تنقسـم إلى ذكر وأُنثى كما قال سبحانـه : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَـا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي هذا النبات يسـرّ من نظر إليـه من حسنه ونضـارته وألوانه الخـلابة . ثم يعقّب القـرآن على ذلك ﴿ تَبْصِـرَةً وذِكْرَى لِكُـلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ ﴾ أي هذه الأمور المذكورة تبصّر وتذكّر الإنسـان بقـدرة اللّه وعظمتـه فتفتـح القلوب نحو خـالقها وتصـل الأرواح ببارئهـا ، حقاً إن فيهـا تـذكـرة ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ ﴾ لكل إنسـان مقرّ بعبوديته للّه ﴿ مُنيب ﴾ راجع إلى اللّه بالتوبة متفكّر في بديع صنعه .

ويتـابع القـرآن عرض مـظاهر قـدرة اللّه المتبديـة في إنـزال المـطر ، وإحياء الأرض به بما تنبت من نبات وأشجار :

---

(١) مددناها : هذه اللفظة يفهم منها كروية الأرض ، فأينما نـظرنا إلى الأرض نـراها منبـسطة فـإذا كنا في خط الاستـواء أو القطب الجنـوبي أو الشمالي أو في اي مـوقع نتـواجد فيـه فالأرض أمامنا نراها منبـسطة وهذا لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا كـانت الأرض كرويـة ، فلو أن الأرض مـسطحة أو مربعة أو مثلثة أو مسدسـة في أي شكل من الأشكـال لوصلنـا فيها إلى حافة وحيث أنه لا يمكن أن نصل في الأرض إلى حافة فـذلك يـدل على أن الأرض كروية .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُباركاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزقاً لِلعِبَادِ وَأَحيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً ميتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾ (٩ - ١١) .

فالله سبحانه نَزَّل من السحاب ماء فيه الخير والبركة ، ينتفع به الناس ، وبه قوام المخلوقات الحية ، فهذا الماء ينبت الله به أشجار البساتين ، ﴿ وَحَبَّ الحَصِيد ﴾ وهي الحبوب كالقمح والشعير وغير ذلك مما يُحصد ويدّخر ويقتات به ، وكذلك ينبت الله بالماء ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾[1] وباسقات بمعنى عاليات مرتفعات ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ والطلع أول ما يخرج من ثمر النخيل . ونضيد : أي متراكب بعضه فوق بعض في اتساق وانتظام ﴿ رِزْقاً لِلْعِبادِ ﴾ أي ما تقدم من البساتين والحب والنخل جعله الله رزقاً للعباد ليقتاتوا به ، بعد أن سخّر الله له الماء المبارك . هذا الماء الذي قال عنه سبحانه ﴿ وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ ثم يعقّب الله على ذلك كله بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الخُروجُ ﴾ أي كذلك تخرجون من قبوركم يوم القيامة أحياء للوقوف أمام رب العالمين للحساب . فجملة ـ كذلك الخروج ـ هي جواب للكافرين على تساؤلهم وتعجبهم من رجوعهم أحياءً بعد أن يصيروا تراباً ، فكما أن الأرض تكون هامدة لا عشب فيها ولا نبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء دبّت فيها الحياة من جديد ، فكذلك قدرة الله تخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن يصيروا تراباً ، وبهذا الإيضاح يتبلور في أذهان الناس سلطان الله المطلق ، القادر على كل شيء ، وتضعف فكرة الإنكار للبعث في النفوس المرتابة الرافضة له .

---

(١) الملفت للنظر أن الله ذكر من صنوف النبات : النخيل التي هي في الطول أضعاف الإنسان ، فالقادر على خلق النخلة الباسقة من النواة بواسطة المياه والتراب قادر على إعادة الإنسان حياً .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

شـرح المفـردات

أَصْحَابُ الرَّسِّ : اصحاب البئر ، وهم قوم رموا نبيهم في البئر حياً ليموت فيه .

قَوْمُ تُبَّعٍ : لقب ملوك اليمن وقد نسب إليهم أهل اليمن في القديم .

فَحَقَّ وَعِيدِ : وجب عليهم العذاب . والوعيد التهديد بالشر .

أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ : هل عجزنا عن خلق الناس أول مرة ؟

لَبْسٍ : شك وحيرة .

مَا تُوَسْوِسُ : الوسوسة ، حديث النفس الخفي وما يدور في الضمير .

حَبْلِ الوَرِيدِ : عرق كبير لمجرى الدم في العنق يتصل بالقلب .

يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ : المتلقيان هما ملكان يتلقيان أعمال الإنسان ويكتبانها .

قَعِيدٌ : أي قاعد أو راصد .

رَقِيبٌ : ملك حافظ لأقواله شاهد عليه .

عَتِيدٌ : مُعدّ ومهيأ لكتابة أعمال الإنسان من الخير والشر .

سَكْرَةُ المَوتِ : شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله .

تَحِيدُ : تميل عنه وتنفر .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

نُفِخَ في الصُّور : هي النفخة الثانية في البوق .

يَوْمُ الوَعِيدِ : اليوم الذي وَعَدَ اللّٰه الكفار أن يعذبهم فيه .

سَائِقٌ : ملك يسوقها إلى الحساب .

شَهِيدٌ : ملك يشهد عليها بما عملت .

كَشَفْنَا عَنْكَ غِطاءَكَ : كشفنا حجاب غفلتك عن الآخرة .

فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ : نظرك قوي نافذ يرى ما كان محجوباً عنك .

قَرِينُهُ : الملك الموكل بكتابة أعماله .

عَتِيدٌ : حاضر .

كَفَّارٍ عَنِيدٍ : شديد الكفر معاند للحق .

مُعْتَدٍ : ظالم ، مجاوز للحق .

مُرِيب : شاكٍ في وحدانية اللّٰه وفي دينه .

تابع سورة ق

وبعد أن عرض القرآن الدلائل على حصول البعث ، انتقل إلى ذكر بعض الأقوام الذين هلكوا بسبب تكذيبهم لأنبيائهم :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١٢ ـ ١٤) .

فالله سبحانه يتوعَّد مشركي العرب وينذرهم بعقابه ، مذكِّراً إياهم بما حلّ ببعض الأمم السالفة الذين كفروا بالله ، وكذّبوا برسله إليهم .

فقوم نوح أغرقهم الله جميعاً باستثناء فئة قليلة آمنت برسالة نوح فركبوا معه في السفينة ونجوا من الغرق .

﴿ وَأَصْحابُ الرَّسِّ ﴾ الرسّ : البئر ، والرسّ موضع نُسب إليه هؤلاء الأقوام الذين هلكوا ، قيل إنهم قتلوا نبيهم بأن رموه في البئر حياً حتى مات ، وهؤلاء كانوا يسكنون في قرية باليمامة يقال لها فلج ، وقيل هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في سورة البروج ، وأصحاب الأخدود قوم كافرون نقموا على المؤمنين في زمانهم فنكّلوا بهم وذلك بأن حفروا لهم قناة في الأرض ، وأضرموا النار فيها ، ثم أحرقوهم .

﴿ وثمود ﴾ وهم قوم من العرب البائدة وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه « صالح » وكانت مساكنهم في هضاب صخرية في وادي القرى من الحجاز ، وكان هؤلاء يعبدون الأصنام ، وقد وصف القرآن هلاكهم عندما خالفوا أمر الله وذبحوا الناقة التي أمرهم الله أن لا يمسوها بسوء

﴿ فَأَخَذَتْهم الصَّاعِقَةُ وهم يَنْظُرون ﴾ الذاريات : ٤٤ .

﴿ وَعَاد ﴾ هم قوم من العرب البائدة ، وقد بعث اللّه فيهم نبيه هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف التي تقع بين اليمن وعُمان ، وقد ذكر القرآن ما حلّ بهم جزاء كفرهم وطغيانهم فقد ﴿ أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة ﴾ الحاقة : ٦ .

﴿ وفرعون ﴾ لقب لملوك مصر القديمة والقرآن يقصد به فرعون الذي كان على عهد موسى وهو منفتاح بن رعمسيس الثاني وهو الذي غرق وعثر على جثته أخيراً في قبر أمنحتب الثاني بالأقصر ، ويوجد الآن بالمتحف المصري،وهنا لا بد من التنويه إلى أن في العثور عليه وعرضه في المتحف للناظرين معجزة من معجزات القرآن الذي قال فيه منذ أربعة عشر قرناً بعد غرقه ﴿ فَالْيَومَ نُنَجِّيكَ بِبَدنك لِتَكونَ لمن خَلْفَكَ آية ﴾ يونس : ٩٢ .

﴿ وإِخْوانُ لُوطٍ ﴾ هم قوم كانوا يسكنون قرية « سدوم » في الأردن ، وقد هاجر إليهم نبي اللّه لوط من العراق ودعاهم إلى عبادة اللّه وترك الفواحش فما استجابوا له ، وعبّر القرآن عن هؤلاء القوم بإخوانه لأنه صاهرهم ، وقد عاقبهم اللّه بأن جعل ديارهم عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجّيل .

﴿ وَأَصحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ الأيكة : الشجرة الملتفة ، وَأصحاب الأيكة هم قوم شعيب كانت مساكنهم كثيرة الأشجار ، وكانوا يطففون الكيل والميزان ، ويفسدون في الأرض فأخذهم عذاب يوم الظلّة ، بأن سلّط اللّه عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا ليستظلوا بها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ تُبّع لقب يُطلق على ملوك حِمْيَر باليمن ، وقوم تُبّع قبيلة عربية حلت بها نكبة من النكبات الطبيعية في عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام ، وقيل المراد بقوم تُبّع قوم سبأ الذين خرّب الله ديارهم بتهدم سدّهم العظيم وتشريدهم في شتى البلاد .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي كل هؤلاء الأقوام كذّبوا رسل الله إليهم فحق عليهم وعيد الله بالعذاب والهلاك .

والقرآن إذ يسوق هذه الأمثلة عن مصارع المكذبين في الأزمنة السابقة ، إنما يهدف إلى إثارة عقول الكافرين زمن النبي محمد ﷺ ، ليأخذوا العبرة بما حل بالمكذبين قبلهم .

بعد هذا التهديد والوعيد للكفار يعود القرآن إلى قضية البعث ، وإعادة الإنسان حيًّا بعد الموت للحساب :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١٥) .

أَفَعَيِينَا : الهمزة للإنكار والتوبيخ وإقامة الحجة عليهم ، والعي : العجز . فالله يقول : أعجزنا عن ابتداع الخلق الاول الذي خلقناه ، وهو آدم وذريته وخلق السموات والأرض إنّا لم نعجز عن الخلق الأول كما علموا ، ولكنهم ﴿ في لَبْسٍ من خلق جديد ﴾ أي هم في شك وحيرة من قدرتنا على خلقهم خلقاً جديداً وهو البعث بعد فناء أجسادهم في التراب .

هذا وقد بيّن القرآن في موضع آخر من هذه السورة بأن إعادة خلق الإنسان هو أهون وأسهل على الله من بدء خلقه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الروم : ٢٧ . وهذا دليل منطقي يقبله العقل

كل القبول ولا يرفضه .

فالإنسان عندما يصنع أنموذجاً أولياً لصناعة من الصناعات يحتاج إلى تصميم وتجارب وجهد حتى يخرج هذا الأنموذج خالياً من العيوب ، أما إعادة صنع هذا التصميم فيتحول بعد ذلك إلى مسألة رتيبة ، هذا هو المشاهد في حياة الإنسان ذلك المخلوق الضعيف ، فما بالك بقدرة اللّٰه العظيمة التي خلقت هذا الكون العظيم ، حيث يبدو الإنسان أمامه جزءاً صغيراً . وواضح من كلمة ﴿ أهوَنُ ﴾ أنها تقريب لأذهان الناس بما هو مألوف لديهم من أن إعادة الشيء أسهل من فعله ابتداء ، أما بالنسبة إلى اللّٰه فليس هناك هيّن وأهْون بل البدء والإعادة سواء أمام قدرة اللّٰه العظيمة .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مدى إحاطة علم اللّٰه بالإنسان وما يفعله من خير وشر ليحاسب عليه عند البعث يوم القيامة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ (١٦) .

فاللّٰه سبحانه خلق الإنسان وخلق فيه العقل والشعور والإدراك ، وهذا ما يشعرنا بأنه سبحانه أدرى بما صنع . وتتابع الآية : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه ﴾ أي أن اللّٰه يعلم ما يختلج في سرّ الإنسان وضميره من المشاعر والأفكار ، وهذا مما يزجر الإنسان عن المعاصي التي يستخفي بها عن أعين الناس لأنه يعلم أن اللّٰه رقيب عليه لا يخفى عليه شيء . وتضيف الآية بعد ذلك ﴿ ونحن أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَريد ﴾ قيل المراد بالقرب : قرب العلم لا قرب الذات لتنزهه سبحانه عن القرب المكاني ، وقيل المراد بذلك : إن ملائكة اللّٰه تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه وهي

تكتب أعمال الإنسان من خير أو شر . وحبل الوريد هو عرق يجري فيه الدم في باطن العنق .

ثم يضيف القرآن أكثر من ذلك فيذكر بأن الله أوكل بالإنسان ملكين يحصيان عليه كل حركة من فعل أو قول ، ليشعر أن الرقابة محكمة عليه :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيهِ رقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

المتلقيان : هما ملكان من الملائكة يأخذان ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال فيسجلانها ، ﴿ عَنِ اليَمينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ﴾ أي أنهما قاعدان عن يمين الإنسان وشماله ومكان قعودهما غير معلوم . هذا الإنسان ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم بكلام يقصد به الخير أو الشر ، أو يعمل عملاً ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ أي ملك حافظ يرقب قوله وعمله ﴿ عَتِيد ﴾ حاضر ومهيأ لكتابة ما أمر به من أعمال الإنسان خيراً أو شراً . فكلا الملكين حافظ حاضر عند الإنسان ، فأما الملك الذي عن يمين الإنسان فيكتب الحسنات وأما الملك الذي عن شماله فيكتب السيئات .

ثم يذكِّر القرآن الإنسان بالموت وسكراته ، وأمام رهبة الموت يتلاشى غرور الإنسان ويستشعر عجزه ، ويتفجّر ينبوع الإيمان في قلبه ، مدركاً وجود قدرة إلّهية فوق قدرته تتصرف في هذا الكون ؛ فالإنسان تجتاحه الغفلة في هذه الحياة التي تغريه ببهجتها وزينتها وشهواتها فيعرض بذلك عن الإيمان بخالقه ، ويبتعد عن ذكره وعن السير بموجب وصاياه ، والاستعداد لما بعد الموت ، ولكن عندما يصل إلى عتبة الموت تتبدى له الحقيقة بأجلى مظاهرها ، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْه تَحِيدُ . وَنُفِخَ في الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ . وَجَاءت كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (١٩ - ٢٢) .

وسكرة الموت هي شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، والمراد : (بِالحَقِّ) أي عند سكرات الموت يتضح له الحق فيؤمن بخالقه ، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والحساب وتقرير الثواب والعقاب ولكن هذا الحق الذي يراه المحتضر لا ينفعه لأنه كذّب به من قبل ولم يؤمن به فلا ينفعه الإيمان المتأخر ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي ذلك الحق من أمر الآخرة هو الذي كنت تنفر منه وتفزع .

ومن مشهد سكرات الموت إلى مشهد آخر يعقب الموت وهو مشهد البعث والجزاء وهو ما تركز عليه السورة وتؤكده ، فيقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ ﴾ أي نفخ في البوق النفخة الثانية التي يبعث اللّٰه فيها الناس أحياءً بعد الموت ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ ﴾ وهو يوم القيامة حيث ينجز اللّٰه وعيده على المجرمين بالعذاب ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي جاءت كل نفس من الناس ومعها سائق من الملائكة يسوقها إلى أمر اللّٰه وإلى الحساب ، وشاهد من الملائكة يشهد عليها بما عملت وقيل الشاهد هي الجوارح ، وقد جاء في القرآن : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور : ٢٤ .

﴿ لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ هذا ما يقال للكافر الغافل إذا عاين وتبدت له حقائق الآخرة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطاءَكَ ﴾ أي أزلنا غفلتك بما تشاهده اليوم من حقيقة البعث والجزاء ، والغطاء هنا هو الحجاب الذي

كان يغطي عقول الكافرين عن إدراك أمور الآخرة ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي بصرك اليوم أصبح حاداً أي قوياً نفاذاً تدرك به ما أنكرته من أمور الآخرة .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافر في الآخرة وما يلاقيه هناك من عذاب .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾(٢٣ ـ ٢٦) .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد ﴾ فالقرين : هو الشيطان الذي كان مصاحباً وملازماً للكافر فهو يقول : هذا الكافر الذي عندي مهيأ ومعد لجهنم بإضلالي له . وقد يكون المراد بالقرين : الملكين ، السائق والشهيد ، فالسائق يسوقه إلى ساحة الحساب ، والشهيد يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، فالملك الذي كان يشهد على أعماله يقول : هذا ما لدي من أعماله حاضر ومعد للحساب ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ الخطاب هنا للملكين : السائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار ، يقال لهما : إطرحاه في نارها ليكتوي بحرارتها ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيد ﴾ كل شديد الكفر جاحد بوحدانية اللّه ، معاند عن قبول الحق والهدى ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يمنع الناس عن دخول الإسلام ، أو يمنع الناس عن كل خير ﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ معتد على الناس بلسانه بالبذاءة والفحش ، وبيده بالسطوة والبطش ، وهو شاكٌ في وجود اللّه ووحدانيته والبعث ﴿ الذي جَعَلَ مَعَ اللّه إِلَهاً آخَرَ ﴾ أي أشرك باللّه واتخذ معه معبوداً آخر ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ والعذاب الشديد هو نار جهنم التي بُدىء بذكرها في هذه الآيات .

۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

ما أطْغَيْتُهُ : ما حملته على الكفر والبغي .

كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ : كان مائلاً عن طريق الهدى ميلاً بعيداً .

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالوَعِيدِ : أرسلت إليكم الرسل من قبل لتحذركم عقابي وعذابي .

مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ : ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا من عقاب العاصين .

وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلعَبِيد : لا أعذب أحداً من عبادي ظلماً بغير جرم اقترفوه .

أُزلِفَت : قُرِّبت وأُدنيت .

الجَنَّة : دار النعيم في الآخرة .

لِكُلِّ أوَّابٍ : لكل راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه .

حَفِيظ : الحافظ لأوامر الله ولما استودعه الله من حقوقه .

مَنْ خَشِيَ الرَّحمَن بِالغَيْبِ : من خاف الله دون أن يراه .

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ : بقلب تائب من ذنوبه .

يَوْم الخُلود : أي يوم الخلود في نعيم الجنة الذي لا انتهاء له .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

شرح المفردات

كَمْ أَهْلَكْنَا : اي كثيراً ما أفنينا وأمتنا .

قَرْنٍ : أهل زمان واحد .

بَطْشاً : قوة .

فَنَقَّبُوا في البلادِ : طافوا في البلاد وتوغلوا في أقاصيها .

هَلْ مِنْ مَحِيصٍ : هل لهم مهرب من أمر الله أو من الموت .

لَذِكْرَى : تذكرة وموعظة .

لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ : لمن كان له عقل يتدبّر به .

أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ : أصغى لما يقال له وهو متفهم لما يُخبر به .

وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ : وما أصابنا من إعياء وتعب .

سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : نَزِّه ربك عن النقص ، أو صَلِّ له حامداً .

أَدْبَارَ السُّجُود : أعقاب الصلوات .

يَوْمَ يناديِ المنادي : وهي صيحة يوم القيامة ينادي بها الملك إسرافيل .

يَسْمَعُون الصَّيْحَةَ : يسمعون صيحة البعث .

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

شــرح المفـــردات

ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوج : ذلك يوم الخروج من القبور .

إلَيْنَا المَصِير : إلى الله المرجع والمنتهى حيث يُجَازى كلٌ بما عمل .

يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُم سِرَاعاً : يوم تصدّع الأرض عنهم فيخرجون منها مسرعين .

حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ : جمع الناس للحساب سهل يسير على الله .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ : ما أنت بمتسلّط تجبرهم على الإسلام .

مَنْ يَخَافُ وَعِيد : من يخاف وعد الله بالعذاب لمن خالف أمره .

تابع سُورَة قٓ

وتتابع الآيات فتذكر صورة عن الحوار الذي سيكون يوم الحساب والجزاء بين الكافر وشيطانه :

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بالوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٢٧ ـ ٣٠) .

القرين هنا هو شيطان الكافر الذي كان موكلاً به في الدنيا[١] ، فالكافر حينما يلقى في النار يقول : ربنا أطغاني شيطاني ، فيقول الشيطان : ﴿ ما أطغيْتُهُ ﴾ أي ما جعلته طاغياً ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ، والطغيان : تجاوز الحد في العصيان والشر والمغالاة في الكفر والبغي . ثم يتابع الشيطان قوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ فهذا الكافر كان في ضلال بعيد عن الحق ، وكان طاغياً باختياره وقد دعوته إلى الضلال فاستجاب لي[٢] .

ففي ساعة الحساب يوم القيامة يتنصّل كل من الإنسان والشيطان من جرائمه ويلقي أحدهما التبعة على الآخر ، وهنا يردُّ اللّه عليهما : ﴿ قَالَ

---

(١) وقد جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمن نُقَيِّض لهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرين ﴾ الزخرف : ٣٦ . أي ومن تغافل وأعرض عن ذكر اللّه هيأنا له شيطاناً فهو مصاحب وملازم له .

(٢) وقد ذكر القرآن ما يقوله الشيطان يوم القيامة في شأن الكافرين : ﴿ وَمَا كان لي عليكم من سُلْطانٍ إلاّ أن دَعَوْتُكُم فاسْتجبتم لي ﴾ إبراهيم : ٢٢ .

لا تخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أي لا تختصموا في موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالوَعِيدِ ﴾ أي لقد سبق وقَدَّمْتُ إليكم الإنذار بالعذاب لكل من يسلك طريق الكفر ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ ﴾ فيما وعدته من ثواب للمؤمنين وعقاب للكافرين ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي ما الله بظالم للناس فيزيد على إساءة المسيء أو ينقص من إحسان المحسن ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ فيوم القيامة يقول الله لِجَهَنَّم هل امتلأت بالكفار والعصاة ﴿ فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ أي هل من زيادة منهم لأستقبلهم ، سؤال وجواب جيء بهما على هذا الوصف لتهويل أمرها وأنها من السعة بحيث يدخلها من يستحق دخولها ويظل فيها متسع لآخرين .

وبعد أن بيّن القرآن مصير الكافرين في الآخرة انتقل إلى بيان مصير المتقين :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحمٰنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوها بِسَلَامٍ ذَلكَ يَوْمُ الخُلودِ . لَهُمْ مَا يَشاؤونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ ﴾(٣١ ـ ٣٥) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ للمتقين ﴾ أي وأدنيت الجنة وقرِّبت للذين اتقوا ربهم ، فخافوا عقوبته باجتناب المعاصي والعمل بالطاعات ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي أن الجنة لم تَعُد بالنسبة للمتقين أمنية ورجاء بعيداً ، وإنما أصبحت اليوم أمراً واقعاً غير بعيدة عنهم وهي في متناول أيديهم ﴿ هَذَا ما تُوعَدُونَ ﴾ هذا الذي يرونه من النعيم هو ما وعدهم به سبحانه من الثواب على ألسنة رسله ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ لكل راجع إلى الله بالتوبة وفعل الطاعات ﴿ حَفِيظ ﴾ أي حافظ لأوامر الله ولما استودعه الله من حقوقه ، أو حافظ لتوبته من النقض ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ

بالغَيْبِ ﴾ أي من خاف اللّه وأطاعه وهو لم يره ، أو خافه في الخلوة حيث لا يراه أحد .

فخشية اللّه مصدر هام لكل الفضائل التي يتحلى بها الإنسان لأنها تنبع من الاعتقاد بالبعث وأن الإنسان محاسب على أعماله يوم القيامة ، فيتوب من شروره وآثامه ، ويقبل على طاعة ربه ، ولهذا عقّب القرآن على خشية اللّه بالقول : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ والإنابة إلى اللّه الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل .

هؤلاء المتقون الَّذِينَ وصفتهم الآيات بالصفات الكريمة السابقة ، يُقال لهم : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ ﴾ أي ادخلوا الجنة بأمان من كل مكروه ، أو بسلام مِنَ اللّه وملائكته ، وهم في الجنة في نعيم دائم لا يزول ﴿ لَهُمْ ما يَشاؤونَ ﴾ أي لهم في الجنة ما تشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ولهم عند اللّه زيادة على ما يشاؤونه مما لم يخطر ببالهم من النعيم ، أو لهم من النعيم الزيادة على ما يستحقونه من الثواب على أعمالهم .

ثم يعود القرآن إلى الإشارة إلى إهلاك اللّه للأمم السالفة بسبب كفرها بصورة مجملة غير الصورة التي سبق عرضها قبل قليل في هذه السورة :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا في البِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ . إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(٣٦ ـ ٣٧) .

يخوف اللّه المشركين من أهل مكة بذكر مصارع أمثالهم من الكفار من الأمم السالفة بقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ ﴾ والقرن : أهل

كل زمان واحد وهؤلاء الأقوام ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً ﴾ أي أشد قوة من مشركي مكة وأكثر عدّةً وعدداً ﴿ فَنَقَّبُوا في البِلاَدِ ﴾ فساروا في البلاد ، وطوّفوا فيها بقوتهم وسلكوا كل طريق ، ولكن النتيجة المحتومة : ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيص ﴾ أي هل من مهرب من اللّه أو من الموت ؟ وفي هذا تذكير بإحكام القبضة الإلهية على الخلق ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ أي إن في هلاك القرون الماضية لتذكرة وموعظة وعبرة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَـهُ قَلْبٌ ﴾ القلب هنا العقل لأنه موطن الإدراك في نظر العرب قديماً ، أي لِمَن كان له علم وفهم ﴿ أَوْ أَلْقى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أو أصغى سمعه إلى هداية اللّه وهو حاضر الذهن غير غافل عنه ولا ساه .

ثم يذكر القرآن بعد ذلك قدرة اللّه العظيمة التي خلقت السماوات والأرض ولم يصبها تعب ولا مشقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٣٨) .

واللغوب : التعب والإعياء . هذه الآية رد على اليهود الذين قالوا إن اللّه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع من الأسبوع وهو يوم السبت ، ولهذا لا يجوز العمل عندهم في هذا اليوم .

كما أن هذه الآية رد على منكري البعث ، فالذي خلق هذا الكون العظيم في ستة أيام ولم يصبه تعب قادر على إعادة الإنسان حياً للحساب يوم القيامة .

وقد يقال إن النتائج التي توصل إليها العلم عن أصول العالم تخالف كل المخالفة ما هو مقرر في العهد القديم ، وما هو مذكور في القرآن من

أن اللّه خلق العالم في ستة أيام ، فالعلم الحديث ـ كما يقولون ـ يقرر أن هناك فترة من الزمن طويلة المدى قام خلالها خلق هذا الكون .

هؤلاء الذين أثاروا الشبهات في هذا السبيل نقول لهم : إننا لا نستطيع معرفة اليوم إلاّ بوجود الشمس ، سواء أريد من اليوم النهار ، أو النهار والليل معاً ، وقبل خلق السماوات والأرض لم تكن شمس أي لم يكن يوم ، وقد تكون الشمس من أواخر خلق اللّه ، وعلى هذا فالمراد بالأيام الستة : ستة أزمنة لا يعلم مقدارها إلاّ اللّه سبحانه .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : المراد بـ « ستة أيام » إشارة إلى ستة أطوار ، والذي يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة ، لأن اليوم في اللغة عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السماوات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت[1] . . .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الدعوة إلى الصبر وتمجيد اللّه سبحانه :

﴿ فَاصبِر عَلَى مَا يَقُولونَ وَسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحهُ وَأَدبَارَ السُّجُودِ ﴾ (٣٩ ـ ٤٠) .

فاللّه يخاطب نبيه محمداً بالصبر على ما يقول هؤلاء المكذبون من الطعن بنبوته ، والتكذيب بالبعث . وهذا الخطاب يشمل المؤمنين أيضاً بدعوتهم إلى الصبر على ما يلاقونه من أذى بسبب إيمانهم أو في دعوتهم إلى اللّه . ﴿ وَسَبِّح بِحَمد رَبِّكَ ﴾ أي نزّه اللّه عما لا يليق بجنابه متلبساً

---

(١) هذا وقد جاء في القرآن : ﴿ وَإنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَألف سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ الحج : ٤٧ .

بحمده ، قيل المراد بالتسبيح الأمر بالصلاة ، وسميت الصلاة تسبيحاً لأنها تشتمل تسبيح اللّه وحمده وشكره ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ المراد بها صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ الغُرُوبِ ﴾ وهي صلاة العصر ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ المراد بها صلاة المغرب والعشاء ، وقيل صلاة التهجد بالليل ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُود ﴾ السجود يعبّر به عن الصلاة ، وأدبرت الصلاة إذا انقضت،قيل هما الركعتان النافلتان بعد صلاة المغرب ، أو النوافل بعد الصلوات المفروضة .

ثم يختم اللّه هذه السورة بتأكيد قضية البعث الذي هو موضوع هذه السورة .

﴿ واسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحيي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بجبَّارٍ . فَذَكِّر بالقُرآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٤١ - ٤٥) .

هذه الآيات مرتبطة بأوائل السورة التي تذكر إنكار الكافرين للبعث ، فاللّه يقول : واستمع يا محمد أخبار القيامة يوم ينادي المنادي الموتى من قبورهم ﴿ من مكان قريب ﴾ بحيث يصل صوته إلى الكل ، فيقول هذا المنادي : يا أيها الناس هلمّوا إلى الحساب فيقبلون ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَة بِالحَقِّ ﴾ أي يوم يسمع الخلائق صيحة البعث حيث هي كائنة حقاً إيذاناً ببعث الأجسام أحياء للحساب ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾ أي ذلك اليوم هو يوم الخروج من القبور ﴿ إِنَّا نَحْنُ نحيي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ ﴾ فاللّه وحده هو الذي يحيي الخلق ويميتهم وإليه المنتهى للجزاء والحساب

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ أي يوم تتصدَّع الأرض وتتفتح ليبعث منها الأموات من لدن آدم حتى القيامة حيث يخرجون منها مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي جمع الناس للحساب يوم القيامة ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هو سهل هيِّن على الله .

وبعد هذا كله يتوجه الله بالخطاب إلى النبي بقوله : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي وما أنت يا محمد بمتسلّط عليهم لتجبرهم على الإيمان فما أنت إلاّ نذير ﴿ فَذَكِّر بالقُرآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيد ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن وقم بالوعظ به من يخشى وعيد الله ويخاف عقابه ، وما وعيد الله إلاّ الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة والذي يخاف وعيد الله هو المنتفع بالعظة والتذكير .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

تفسير القرآن لابن كثير .

تفسير فتح القدير للشوكاني .

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد بن محمد العمادي .

تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .

تفسير روح المعاني للألوسي .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

تفسير سورة الحجرات للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ مجلة الأزهر .

تفسير سور من القرآن للشيخ عبد الرحيم فرغل البليني ـ مجلة الإسلام ـ مصر ـ .

تفسير سورة الفتح للأستاذ عبد الله عفيفي ـ مطبعة مجلة الإسلام .

تفسير سور من القرآن للأستاذ أحمد حسين ـ مجلة منبر الإسلام ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٢ .

الفهرس

كتب للمؤلف :

- روح الدين الإسلامي .
- مع الأنبياء في القرآن .
- روح الصلاة في الإسلام .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- الحكمة النبوية .
- تفسير جزء عمَّ .
- تفسير جزء تبارك .
- تفسير جزء قد سمع .
- تفسير جزء والذاريات .
- تفسير جزء الأحقاف .
- تفسير جزء الشورى .
- تفسير جزء الزُّمَر .
- تفسير جزء يس .



هَـذَا التَّفْسِيرُ

- يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .
- يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يبُيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون :

دَارُ العِلْمِ لِلمَلايِين

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥